أ. الدّكتُورُ الأخضرُ شرّيطٌ

في الثقافة والعامل الاستعماري



د. الأخضر شريط

في الثقافة

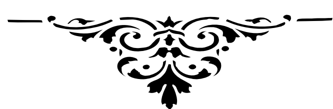
والمعامل الاستعماري

مؤسسة كنوز الحكمة

Kounouz El-Hikma

للنشر و التوزيع

1432هـ/2011م



في الثقافة والمعامل الإستعماري



المؤلف د الأخضر شريط

رقم الإيداع القانوني: 5095-2012

الطبعة الأولى-2012-

العنوان: حي الشمس الضاحكة عمارة (أ) الأبيار – الجزائر

الهاتف/ الفاكس:☎ 021.79.96.21

الجوال 213.0770300866

الموقع الإلكتروني: www.kounouzelhikma.dz

البريد الإلكتروني: kounouzelhikma@yahoo.fr




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من رسموا معالم الربيع العربي
من الشهداء
محمد البوعزيزي، وخالد سعيد، وخالد خنفر و....

مـقدمة

دفعني البحث عن«في الثقافة والمعامل الاستعماري» جملة من الأسباب، في مقدمتها التظاهرة الثقافية التي عاشتها بلادي مع سن« الجزائر عاصمة الثقافة العربية لعام2007»، وكذا تنظيم بلادي لعدة تظاهرات علمية وثقافية، أذكر منها إحياء ذكرى الكاتب الفرنسي جاك بيرك بمؤتمر له في قصر الثقافة- ومدينة فرندة. ومؤتمر بتمنراست من تنظيم وزارة المجاهدين وآخر بورقلة،-تقورت- من تنظيم إتحاد المؤرخين الجزائريين، وغيرها من التظاهرات الثقافية والعلمية التي غصت بها بلادي بالمناسبة التي ذكرت.

كما أن اختياري لموضوعات تتعلق بالثقافة لها أيضا عدة أسباب: أذكر منها: أنه ألحق تشويه كبير-على الأقل إعلاميا- بمشكلة الثقافة، التي تعاني منها بلادي، كما تعاني منها كل أقطار العالم الإسلامي. كما أن الثقافة لم تنل حظها الوافر من التغطية، للرفع بالمجتمع من براثين التخلف، ولإعطائه المكانة اللائقة به. وهو السبب الرئيسي في نظري لاهتمامي بموضوعات في الثقافة. وربما يتساءل البعض عن ربطها بالمعامل الاستعماري، لماذا؟ أقول أن المعامل الاستعماري في المجال الثقافي هو وحده الذي لم يترك للمشكلة الثقافية، أن تقوم في العالم الإسلامي. حيث يقول المفكر مالك بن نبي رحمه الـلـه «.... ولسنا نستطيع أن نتفهم عمل الاستعمار إلا ريثما يثير ضجيجا كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة، أما حينما يكون من تدبير«**فنان**»أو من عمل «قارض» Rongeur فإنه يغيب عن وعيننا...» ومن هنا كان لنا الاهتمام بالمسألة الثقافية. لكن هذه المرة وراء موضوعات تعتبر جاهزة، لأن الكتابة في موضوع صور ثقافية للطوارق والمعامل الاستعماري، يعتبر من الموضوعات التي لم ينتبه

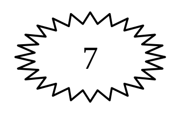
إليها أحد لسبب أو لآخر، ومن هنا جاءت هذه المساهمة منا، لتزيل العزلة الثقافية عن مجتمع الطوارق. ولتبين للقارئ ما كان يدس لهذه الشريحة الاجتماعية من سموم من الكتابة عليها. وإن الكتابة أيضا عن «ورقلة» Wargla بالجنوب الجزائري، هو في حقيقته عنوان كتاب لأحد «الفنانين» الذي قدم صور عن «الثقافي » في مدينة ورقلة، كما يحلو« للفنانين» أن يقدموه. وأما بالنسبة لجاك بيرك Jacques Berque(1910-1995) فإن المسألة الثقافية عنده مرهونة إلى شوافات الرجل الأبيض الذي يرى الأهلي ولا يرى الجزائري، اعتبارا من أن العينان الزرقوان، لا تبصر إلا من معامل «الظرف الاستثنائي»، الذي مرت به الجزائر، أي الاستعمار.

وبالنسبة للموضوع الخاص بالثقافة بين المجتمع والدولة، فإننا ركزنا فيه على استخراج العلاقة التي لم ينتبه إليها أحد. العلاقة بين الفرد والمجتمع، والعلاقة بين هذا الأخير والدولة. وهو الشيء الذي ظل مهجورا منذ قيام جمهوريات ما بعد «التافنة».

كانت هذه أهم الموضوعات، التي عالجتها في هذا الكتاب. وهي بدون شك موضوعات بحوث شاركنا بها في عدة مؤتمرات، منها ما هو دولي، ومنها ما هو وطني.

وأما عن المنهج الذي اتبعناه في كل الدراسات هذه. فهو كالعادة منهج التحليل والتركيب من أجل توضيح بعض الأفكار، ومن ثمة إعادة تركيبها، حتى يتبين ما هو صحيح منها، وما هو غير صحيح. و أكثر من هذا ليتبين منها ما هو صالح، وما هو طالح. ثم تأتي مرحلة النقد بعد أن نبين الإيجابي فيها من ناحيتين: من ناحية الكم، ومن ناحية والكيف.

وأما عن مضمون ما جاء في هذه الدراسات، فنقول بأن الموضوع الخاص بـ في نظرات في صور ثقافية للطوارق والمعامل الاستعماري. فإن جهودنا قد تركزت على تقديم هذا النوع من سكان الصحراء، وحددنا تقريبا معالمهم الجغرافية في الجنوب الجزائري، أو في خارج الجزائر، لنؤكد على حقيقة، غالبا ما يغفل عنها المؤرخون، هي أن الطوارق قبائل منتشرة في مجموعة من الدول ذكرناها. ولنخلص في الأخير إلى التعريف بهذه القبائل ابتداء من تحليل معنى الطوارق. وأخذنا في الحسبان انحدارهم التاريخي: أي دراستهم من الناحية الأنتربولوجية. وبعد كل هذا نظرنا في بعض عاداتهم وتقاليدهم لنجدا أنها متجذرة في عمقين: العمق الطبيعي، باعتبارهم سكان الصحراء، والعمق الديني باعتبارهم مسلمين. حتى أننا لم نعثر على الكثير من الدراسات تؤكد على أنهم من الديانات الأخرى. ومن هنا فإن العادات والتقاليد التي تكلمنا عليها، تعود إلى العمقين اللذين ذكرنا. ثم بعد ذلك انتقلنا إلى مسألة التشويه الثقافي الذي يعرضه أحد الكتاب الفرنسيين وهو فرانسي نيكولا Francis Nicola وهو صاحب كتاب تامسنة Tamesna حيث أنه في هذا الكتاب، يعرض الجانبين: الانتربولوجي للطوارق والجانب الثقافي. فبخصوص الجانب الأول فإننا تركناه لأهل الاختصاص، وأما الجانب الثاني أي الجانب المتعلق بالعادات والتقاليد أي بالمعامل الثقافي، فإننا وجدنا فيه الكثير من الأباطيل، والكثير من التشويه للحقائق الخاصة بالمعالم الثقافية للطوارق. ومنه سعينا لتبيين الغث من السمين منها. كما سعينا لتبيين الصحيح منها من غير الصحيح. وعليه توصلنا إلى قاعدة مفادها أن التشويه للحقائق الثقافية كان متعمدا من هذا الكاتب. متعمدا ينشط في طريق التشويه الذي رسم معالمه ساسة السلطات الاستعمارية للجزائريين. أينما حلوا وحيثما ثقفوا. والغرض كان واضحا وهو طمس الشخصية الوطنية الجزائرية.



وأما الموضوع الثاني فهو الخلفيات الثقافية في «ورقلةOUARGLA» وهو الكتاب الذي ألفه بالبربرية موريس جاردان Maurice Jardon وقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ج دي لور J.Delheur. هذه الخلفيات من حياة الورقليين في بيوتهم. ومن ما يأكلون. وعن الحروف التقليدية عندهم. وعن الحمار عندهم. وعن الموت بورقلة. وعن ما يجلبون من النخيل. وهي كلها موضوعات تأتي متناسقة في الكتاب الأول، مكونة ما يمكن تسميته بـ من الثقافة الورقلية. بمعنى ذاك «**الجو**» الذي كان الورقليون يعايشونه. وبدت لنا من خلال دراستنا للكتاب مجموعة من الحقائق، تتعلق بـ أيضا التشويه الثقافي للورقليين، ومنه فإن الكتاب يدخل أيضا ضمن طمس معالم الشخصية الوطنية من فناني الاستعمار، ولنترك للقارئ يستنبط ما إذا كان التشويه، وطمس لمعالم الشخصية الوطنية أم لا.

وأما الموضوع الثالث. فهو أيضا على علاقة بسابقيه. وهو الموسوم بـ جاك بيرك والإشكالية الثقافية، ومن هذا العنوان تبين لنا معالجة أمرين اثنين، الأمر الأول: وهو تحديد شخصية جاك بيرك. وأما الأمر الثاني فإنه يتعلق بجل الأعمال التي قام بها في المجال الثقافي والسوسيولوجي للعرب والإسلام، حيث قدم خدمة كبيرة للعرب من خلال كتاباته التعريفية بهم، كما أنه من جهة أخرى قدم تراثهم وعاداتهم وتقاليد و....ثقافتهم بمنظار العينان الزرقوان، فهو ينظر إلى كل ذاك الكم الهائل من هذه الزاوية أي نظرة الباحث الغربي، لهذا التراث بمسحة تتلاقى فيها صوفية ابن عربي ومن قبله الغزالي بالبسطامي وابن الفارض ورابعة العدوية و...... وغيرهم حتى تتما شج فيها حقيقة المعقول واللامعقول، في الثقافة العربية الإسلامية. ومن هنا فإن هذه الرؤيا تبدوا-من بيرك- على أنها رؤيا تقدم مع الأسف، كقراءة للتراث العربي الإسلامي، للقارئ الأوربي والفرنسي

خاصة. لأنها كتبت باللغة الفرنسية. وللقارئ والمطلع على أعمال الرجل في الثقافة أن يحكم.

وأما عن الموضوعات الأخرى في الكتاب فهي لا تخلوا من إعطاء صبغة، تمثل نوعا من الثقافة التي تعرضت لنفس القراءة

ومن هنا فإن جل الأعمال التي قدمناها في هذه الدراسة، إنما أردنا من خلالها التعريف بما يقدم من تشويه للثقافة. وبالتالي من طمس لمعالم الشخصية الوطنية، التي رسم ابن باديس - رحمه اللـه- شعارها.

وأما عن الصعوبات التي اعترضت سبيل بحوثنا هذه فتتمثل في حقيقة الأمر، في صعوبة تشابك مجموعة من الحقائق والمفاهيم بالحقيقة الخالصة.ولن نستطيع الوصول إلى إدراك الحقيقة الخالصة (أقصد الحقيقة الثقافية) إلا بعد أن نقلب الأمر ذات اليمين وذات الشمال. فالأمر لا يعدوا أن يكون كالعلبة المربعة الشكل. ولن نستطيع الولوج إليها، إلا إذا تصفحنا جميع وجوه العلبة، حتى نستطيع إيفاء الدراسة حقها. وآمل أن تكون هذه الدراسة بداية لوعي جديد ابتسم له الربيع العربي، واللـه المعين وإليه المآب.

الأخضر شريط.

في 10محرم 1433الموافق لـ06 ديسمبر 2011

الفصل الأول

نظرات في صور ثقافية للطوارق والمعامل الاستعماري

إن الغرض من هذه الدراسة هو إبراز المكانة التي هي عليها المعالم التاريخية للثقافة المتنوعة في تمنراست[1]، تلك الثقافة التي تعود إلى بصمات الحضارات المتعاقبة على المنطقة من بصمات الثقافة الأصيلة و بصمات ثقافة العوارض التاريخية، إلى بصمات الثقافة المتجذرة.

كما أن الغرض هو إزالة الشوائب التاريخية عن معالم هذه الثقافة، وما لحقها من تشويه، سواء في التاريخ القديم أم في التاريخ الحديث. وإن الغرض الثالث هو توضيح الصورة التي طالما ضلت شاحبة للمنطقة. وعليه فإذا كانت الثقافة الأصيلة تعارضت مع ما أسميناه بالعارض التاريخي، وإذا كان هذا الأخير قد عمل على ترتيب البيت التاريخ أي حضارة المنطقة، فإن ما أطلقنا عليه الثقافة المتجذرة يبقى من متغيراتها. وإذا كان العكس هو الصحيح فإن التاريخ الثقافي لا يعود إلى لون واحد من الألوان الثقافية التي أشرنا إليها في الأعلى. بل تعود إلى ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة الحضارة التاريخية. ومنه فإن تساؤلنا هو ما هو الوجه الحقيقي للتاريخ الثقافي للمنطقة؟ للإجابة على هذا السؤال اعتمدنا المنهج

---

[1] - تمنراست، مدينة بالجنوب الجزائري، وهي عاصمة الأهقار

التحليلي المقارن لكل المورث الثقافية – طبعا للكشف عن الوجه الحق فيه، كما أننا اعتمدنا على جملة من المصادر ومن المراجع رأينا أنها تفي بالغرض.

قبل أن نطرق الموضوع بودنا أن نحدد المقصود بالتاريخ الثقافي، إننا نقصد به دراسة ذاك الكل الذي شكل يوما ما طيفه في التاريخ من معالم أثرية ومن آثار عمرانية ومن عادات وتقاليد وسلوكات فنون وتقانة وعلوموحتى من المعتقدات وغيرها إذن إننا نقصد بالتاريخ الثقافي ذاك الجو الذي ملأ دنياه بكل الذي يساهم في تشكيل حضارة ما ومنه الحضارات التي سادت منطقة تمنراست. الطوارق هي كلمة عربية انتقلت إلى اللغة الفرنسية ومنها إلى اللغات الأجنبية وهي تعني في ما تعني والطارق أي السالك للطريق لكن خص في التعارف في الآتي ليلا فقيل طرق أهله طروقا وعبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل، قال:﴿ والسماء والطارق﴾ فال الشاعر: نحن بنات طارق....وعن الحوادث التي تأتي ليلا بال **طوارق** وطرق فلان قصد ليلا"[1]. ونحن لا نستبعد أن يكون هذا هو أصل التسمية وذلك لكون الطوارق كانوا يفضلون المشي ليلا لسبب اتقاء شدة الحر في النهار في الصحراء.

---

[1] - أنظر الراغب الإصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي دار الكتاب العربي، 1972 ص312

وحورت الطاء تاءا عبر القرون كما فعل في الكثير من الألفاظ اللغوية التي تعرضت للنحت التاريخي.[1] ويؤكد القاموس الفرنسي أصلها العربي[2]، كما أن المعنى الذي ذهبنا إليه مؤكد من الباحثين في التاريخ الانتربولوجي للشعوب حيث يذهب أحدهم إلى أن منطقة ما يعرف بالطوارق وهي المنطقة الممتدة من الجنوب الجزائري إلى نهر النيجر إلى غرب السودان كان الرحالة الأولون إليها من عرب اليمن حيث قامت هجرات من بني هلال نحو هذه المنطقة الشيء الذي لا يجعلنا نستبعد أن ترحالهم – للتجارة غالبا ما كان يحدث بالليل وذلك لتفادي الحر وقساوة الطبيعة . ومنه ومهما كان التعليل هذا صحيح أم أنه غير صحيح فهم أي الطوارق شعب عرف بالجنوب الجزائري ومن ورقلة إلى ما يعرف بالأهقار حيث استوطنت هذه القبائل[3]. والذي يتكلم الترقية يعرف بـ "كل تماشق" ومن الطاسيلي فالاهقار فالعرق أنى تتواجد الينابع المائية، يتركز هؤلاء أي قبائل الطوارق. وينتشر الطوارق في عدة دول منها الجزائر وليبيا ومالي والنيجر حتى بوركينا فاسو. مع تواجد أقليات في كل من نيجيريا والتشاد. وأغلبهم يمتد بالصحراء وفي كل من النيجر ومالي .ويذهب البعض إلى اعتبارهم يعودون إلى القبيلة الرئيس

---

[1]- نذكر بعض الألفاظ التي حورت مع القرون لفظة مرابط وهي من الرباط، أصبحت مْرابط والتي تعني غير المعنى المراد منها.

[2] - أنظر بهذا الخصوص موسوعة ،كلمة Encarta,Microsoft2004.Touareg

[3] - نذكر بالمناسبة أن قبائل التوات بالجنوب الجزائري تمتد على واحة أدرار تتربع على مساحة 2000كلم، وهي مابين هضبة تادمايت شمال شرق وعرق الشاش والجنوب الغربي.

وهي قبيلة (تاوزيت) والتي منها تين هينان التي استوطنت الهقار. وهي من قبيلة (كال غالا) مصطحبة خادمتها (تاكاما). والتي منها داغ غالا. والمعلوم أن الطوارق أصلاء وهم يدينون بالإسلام.

والبعض يرى في أن الطوارق أرسطوقراطيون، فهم مهيكلون في نظام هرمي برئيس القبيلة الذي له السلطة العليا، باعتباره من النبلاء. وكذا عليه دوابهم: فالبعير للنبلاء في حين أن البقرة لما دونهم وأن الماعز والنعجة للخدم. كما أن قبائل الطوارق ذات لسان بربري يقال أن كتاباتهم كانت هي التافيناغية المنقوشة على الصخور وهي من الصعوبة بمكان استيعاب دلالات حروفها. الشيء الذي يرجح أن اللغة هذه كانت تكتب وتقرأ لكن دون أن تبقى محافظة على هذه المكانة التاريخية. التي كانت تحتلها ومعنى هذا أن القوم يتكلمون العربية التي كانت لغة الحضارة الإسلامية واعتبارا من أن القرآن بلسان عربي مبين. كما يعرف الطوارق بزيهم التقليدي وهو زي مميز لهم إذ به تكيف تام والبيئة الصحراوية. يتصدر هذا الزي اللثام على الرأس (تاجلمست) وهو المغطي للرأس كله عدا العينين، وذلك قصد اتقاء الرياح وتطاير الرمال والغبار ثم هو زي مميز للرجال منهم دون النساء..

من الأباطيل على التواجد العربي بالجنوب

لقد استقرت بعض الهجرات العربية بالجنوب الجزائري وذلك ببلاد ما يعرف بـ:" زوى" (شمال التوات وشيئا فشيئا نزلوا نحو توات أين بنوا قصورا، وغرسوا النخيل بالضبط في "جديد". وبعد موت الحاج بوعمامة قائد غرب ورقلة، فإن خليفته سيدي أحمد التوجي غادر الأماكن التي كان يقيم بها القائد، وبعد موت سيدي أحمد فإن العرب أقاموا بها طويلا إلى أن توفي هذا الأخير حيث برح أحفاده نحو أدرار الإفوراس، وعلى إثر القوافل التجارية التي كانت تتم بينهم وبين الأهقار وقامت معركة بعد اللقاء بتين تاغارت 1755 وهاهي معالم هذه المعركة:

إن الشيخ سيدي أحمد البخاي (من أم تاجاكنتية) بن الرقادي تزوج بنت صغيرة لسيدي مختار (الشيخ ولد في 1829-1830وتوفي1911و1912) خلص التوات من الأهقاريين حيث قدم عملا يعد من المعجزات في المعركة. وكان تصالح وقائد الأهقار تحت أمارة سيدي أمحمد بن عبد الرحمن بن أبو انعامة وخلفه محمد الخير الذي أعاد إلى الكونتا التي كان على رأسها سيدي المختار الفيء الذي أخذ منه، شريطة أن توقف الكونتا تحضيراتها ضد الرازي وأن ينضم إلى قبيلته.وبعد وصوله إلى مبرك رأى الشيخ أن الكونتا تتجمع للحرب فأمرها بالعودة عن هذا الأمر. عدا الدرميشاك.(ديرومشاكا، إيد أورمشاك)، ياداس (ياديس بن ياديس) والعيد مالك و7 أو 8 من بني وافي من بينهم سيدي امحمد بن الحاج

حبيب الـلـه، سيدي مختار بن سيدي علي وعم أبيه: سيدي محمد مع بعض المحاربين. وكان قادة الحملة هم: علي بن عبد الـلـه الديرامشاكي وعلي بن الطالب ياسين الياديسي. وهزموا بوادي عين تاغارت مخلفين70 قتيلا من بينهم 20من دارمشاكا و20 من ياديس و20من أولاد مالك 10 من المستقلين لأولاد الوافي و2 من أولاد الوافي والإبن الأصغر لسيدي وابن السايح السمس.[1]

إن صاحب هذه النظرة الفرنسي فرانسي نيكولا (Francis, Nicola) يقدم لنا هذه المعركة التي قادها العرب ضد قبائل من الأهقار من الزاوية التالية أولا إنه يرى بأن المعركة قامت لأن العرب قاموا بأعمال لصوصية تمثلت بقطع الطريق للقافلة والإستلاء عليها ثم يقدم أن الخسائر كانت للطرف العربي الذي تولى منهزما وهي ليست من الحقيقة التاريخية في شيء لأن الدليل التاريخي لا يؤكد أن المعارك ما كانت لتقوم إلا من فعل المعامل الاستعماري الذي كان آنذاك قد احتل الجنوب بادئا باحتلال شمال الصحراء كاحتلاله لعين ماضي في سنة1844 ولتماسين في 1854 لكن مع ذلك كان "سلطة محمد العيد الروحية، حسب رأي فيليب قوية في الجنوب إذ يمتد نفوذه إلى جبال الهقار. كان محمد العيد يبتعد عن المسيحيين بغرض المحافظة على سمعته الدينية عند أتباع الطريقة"[2] هذه

[1] - Francis, Nicola.Tamesna Imprimerie nationale, Paris, P68-69.

[2] - أبو القاسم سعد الـلـه، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، الجزء 4 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998ص224

الشهادة من فيليب دو لوفريي وهو المؤرخ الفرنسي تِؤكد حقيقة جد هامة هي أنه لا يمكن أن تكون الأعمال اللصوصية وقطع الطرق سبب في الحرب حسب ادعاء نيكولا إذ أن الطريقة الصوفية محمد العيد الذي شيخها وأحد ركائزها كان يتمتع بالطاعة من أهل الصحراء وكان الرأي هو ما يرى فكيف به تثار حرب بناء على ما ذكر والأمر إليه - كما ادعى نيكولا في كتابه.

وتحت عنوان **معتقدات وأديان** يسوق جملة من المعتقدات السائدة لدى مجتمع الطوارق والبعض منها ذا طابع عادات وتقاليد والبعض الآخر من الديانة الإسلامية ومن العادات والتقاليد في هذه النقطة أي المعتقدات المثال الذي يسوقه عن ما يعرف "بخط الرمل". يقول "فبالنسبة لـ Géomancie (egazen) يقيمه لاسيما **الإمر عادوالديبعاكر** منهم وبعض العرب وغالبا ما تكون النساء هن الخبيرات في التعرف على الإشارات على الأرض (awa inna amadal) (الذي قالته الأرض). ومن حين لآخر لا "تتكلمن" ومعنى هذا أن الأرواح (الإله) لم يمكنهن من أن يعرفن ا المستقبل في لحظة معينة.[1]

والعمليات هي كالتالي:

[1] - Ibid;P 243

نسطر عل الرمال صفوف عدد ما من الإشارات بظهر الإبهام (العرب يعملون 4 صفوف) ونمحو الإشارات من اليسار نحو اليمين مثنى مثنحتى يبقى الصف بإشارة واحدة أو بإشارتين حيث نضعهم جانبا مثلا:

= ، ، بالطابق الأول (بقي إشارتين)

= ، بالطابق الثاني (بقيت إشارة واحدة)

ثانيا نسطر من أعلى إلى الأسفل صفين أخريين من الإشارات ونجري العمل نفسه كما فعلنا في المرة الأولى........ [1] وهذا المثال الذي يسوقه صاحب الكتاب إنما له مغزاه وهو المغزى المتمثل في محاولة منه إلصاق ماهو عادات وتقاليد بالمنطقة بأمر الغيبيات، وكأن الديانة التي يدين بها أهل الطوارق هي بعض من هذا القبيل. لكن التاريخ الثقافي للمنطقة يِكد وجود هذا النوع من العادات ومن التقاليد ليس خاصا بالطوارق وحسب بل إن له جذوره في التاريخ الطبيعي لكل المنطقة التي عرفتها حياة الإنسان والمتناسقة مع الطبيعة الرملية.

---

[1] - أنظر التفاصيل بكاملها على الصفحة 243

3 الثقافات:

وعن بعض الأوجه من الحياة الثقافية يورد صاحب كتاب تامسنا Tamesna حيث يلاحظ أنه في الصلاة " أمود".فإن الرجال لا يقيمون واجباتهم أمام النساء. ومعلوم من الدين بأن الإسلام يفصل بين الذكور والإناث لا سيما في الشعائر التعبدية، وذلك حفاظا منه على أن لا تختلط النساء بالرجال.يقول "وبينما يكون الرجال في المسجد (تامزقيدة) لإقامة الصلاة المكتوبة، فالنساء يصلين بالقرب من الخيمة. وتقام الصلاة بالعربية، والمسجد عندهم عبارة عن دار كبيرة موسعة من الخشب والقش محاط على الواجهة بسياج (أفاراڤ)وهناك مساجد من الحجارة (آير)"[1].

وعن أداء واجب الصيام يرى بأنه ملاحظ عند الشباب فقط دون سواهم وهو –حسبه- دائما مختصر على البعض من قبائل الطوارق يقول: "كما يؤدي شباب التيقاريقاري والإماجرين الصيام[2]. وعن بقية القبائل فلا يلاحظ عليها صوم شبابها إنه لا يذكرها!

التعليم في بلاد الطوارق:

---

[1] - Ibid,P 245.

[2] - Ibid,P245.

يلاحظ أنه بالمدرسة الابتدائية فإن التلاميذ من البنين والبنات يكونون في خيم منفصل بعضها عن بعض أي أن البنات يتعلمن منفصلات عن البنين، والتعليم عند الإناث غالبا ما يتوقف عند سن 10أو12 سنة وإن التعليم عند البنين يمكنه أن يستمر إلى أكثر من ما فوق هذه السن. وهو بهذه الملاحظة لا يقف على الأسباب التي تقف وراء ذلك.

ثم يأتي على ذكر الكتب المستعملة وهو يرى أنها كتب في الدين، ككتاب القرآن الكريم، والبخاري وهو كتاب في الحديث ،وكتب أخرى كالمحيلي، و الراضين. وفي العدالة (أو الشريعة) المدونة للإمام مالك. الخليل، كفاية إن تأثير المدرسين الدينيين لا يظهر إلا لما يقوم عليه "المرابط[1] " الذي يكون له أكثر من 20تلميذا حيث يباشر دروسا له، للكبار، والتي تكون في التربية المدنية أو الثورية أو ببساطة السياسية، أو يقوم من خلالها بعرض للوضع الحالي أو للأحداث في الخارج. وهو يضرب أمثلة على ذلك يقول: ففي الأتارام (أزمزيم) هناك المعلم بانزا وهو سياسي كأحمد المؤمن في الدين، وسيدي عمر الشيخ في العرق الجنوبي الغربي[2]. ثم يقوم بسرد قائمة يصنف من خلالها المرابطين

---

[1] - مرابط بالجزائرية: تعني الأشراف وهي من الكلمات التي تحورت عن مدلولها تاريخيا كما سبقت الإشارة ، وستكون الكلمة بهذا المعنى مع كامل البحث.

[2] - أنظر المصدر السابق نفسه ً2446

كمدرسين وكرجال في الدين وكسياسيين. وحسبه فالوضعية المسجلة للمرابطين لسنة 1938 كانت على النحو التالي:

- عبد الجبار (إجانغيريماتن)وهو من المجموعة الثانية (وهنا نلاحظ أن فرنسا كانت قد قسمت حتى المدرسين إلى مجموعات- طبعا ليسهل التحكم فيهم). وهو يقدم دروسا للكبار وكان يبلغ من العمر 53سنة، وهو من أتباع الطريقة القادرية (أث حماديتن).

- الطيب أث محمدن. ولقد صنفه صاحب الكتاب على أنه من الذين يثورون القبائل فهو ثوري. وهو ينتمي للمجموعة الثانية ولد بحوالي 1909. وله 10 عناصر أي تلاميذ.

- سيدي عامر وهو من مواليد 1875بـ (دار منا) وهو من أتباع عايش رضا، قائد قديم لدار منا.

-محمد أث أحمى قائد للأشراف الولايتن، وكان يبلغ من العمر 83سنة، طريقته القادرية توفي في أوت 1938.

-أحمد الهورار أث إسوف، قائد للكال الشيشين كوميدن، من المجموعة الثالثة، يبلغ من العمر 52 سنة قاد - بتاندر بوكا أو رعارو، ليس له مدرسة. الهرار أث الحسن أصم 83 سنة.

- محمد السيوطي منياديس (ولد في 1897). وكان له 15 عنصرا ببازاغور عائلة المرابطين أستاذ، وكانت له 6 كتب.

-محمد أضحى (غريو أوجييو) بتازولي بالقرب من مقر دامرشاكا، له 10عناصر، 5 كتب، وكان مصنف لدى الإدارة الاستعمارية بأنه مقبول جدا له بعض التأثير.

- البقاي العابدين وهو مولود في سنة1890بعين تيزين تيزت: تلميذ قديم لسيدي عمر الشيخ، وكان مصنف لدى الادارة الاستعمارية بأنه مقبول.

- سيدي محمد إ. وسيدي عامر إ.سيدي علي1900بتاندي، ميدال وهو صهر مني (قاضي بدارمشاكا) له تلاميذ عرب بزاوية إيجاوانجاواتن.تعلم على يد بابا إ.سيدي بابا أحمد إ.الشيخ المختار الكبير (وكذلك علي أب مني)،أحمد المؤمن(قائد المجموعة الثانية كال أرلال) (المعروف عن أبيه الذي حمس العرب للثورة في سنة 1917لـ تواج دارمشاكة ودفن بـ تاندي أين أصبحت له قبة.

- محمد الامين (المدعو مايمين) إ. محمد إ لوفات 1865بتامايا وغادرها إلى دارمشاكة في سنة 1934طريقته كانت الطريقة القادرية شارك بثورة 1917 وكان من تلامذته 15 عنصرا وكانت له 6 كتب. وهو مصنف لدى الإدارة الاستعمارية بأنه كان عدواني Hostile.

- أحمد امبارك إالطيب من مواليد 1905، وكان قائدا لفرع الخنايشة. عازر له 8 عناصر أي تلاميذ، وله 6 كتب وهو مصنف لدى الإدارة الاستعمارية بأنه فرانكوفيلي[1].

وهناك **مرابطين دون مدرسة:** ومن هؤلاء نذكر:

- محمد الأمين المدعو (ميني)إعلي قاضي للعرب بتازولي عند قائد دار مشاكة

- سيدي عامر أب سيدي محمد، والذي هو من نسل أب ميني (علي) تلميذ قديم لسيدي عمر الشيخ والذي لم يكن في علاقة معه، وهو نفسه مصنف لدى الإدارة الاستعمارية بأنه عدواني[2]. توفي في سنة 1925.

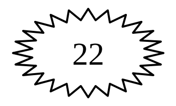
- خاييدي إحمايتي ،بالأزار وبتامايا ،وهو من الصنفين من الإدارة الاستعمارية بأنهم عدوانيون.

- الفزازي أق البشير وكان يبلغ من العمر 95 سنة، ومعه العلامة أحمد الأمين،الذي كان يبلغ من العمر 32سنة، وكان له 40 تلميذا وهو الذي عوضه بالمدرسة القرآنية بالمسجد.

---

(1)- أنظر المصدر نفسه 246

(2)- من المعقول جذا أن هذا التصنيف هو تنصيف الإدارة الاستعمارية ومن هنا فإن ما هو عدواني كما يحلوا لها تسميتهم هو من لا يبارك سياستها الاستعمارية بل يعمل على تنشئة الشباب على سياسة معادية لفرنسا ومن هنا فهو عدواني Hostile، ثم إن هذا اللقب التي كانت توزعه الإدارة آنذاك فيه رائحة عنصرية حتى أن العدواني يكاد يكون من قبيل المتوحشين – طبعا لأنه لا يساير سياستها



- **ومن المرابطين المدرسين** نذكر ما يلي:

بـ **إيقادا من**[1]: بيهرام الناق النافر 52 سنة معلم قرآن الرسالة.

محمد أڤ أنعافر، 55 سنة معلم قرآن، الرسالة.

إينعافر 52سنة معلم قرآن.

أحمد الراز، 62سنة معلم قرآن وهو مصنف من الإدارة الاستعمارية بأن لا تأثير له، وكان له 2 تلميذين.

العتاب وكان يبلغ من العمر 52 سنة معلم قرآن.

بإيغادالن الغرب[1].

البصري أڤ لا غي وكان يبلغ من العمر 59 سنة، وكان له 3 تلاميذ، وهو مصنف من الإدارة الاستعمارية بأنه عدواني، وحيب فرانسي نيكولا فإن (الملاحظ أن الإغاداليين يحفظون القرآن لأبنائهم، ومن هنا فإن هؤلاء هم في المعدل جد مكونين.

بـ: كال أرلال[2]. فكان هناك:

- عبد اللـه هو يبلغ من العمر 57 سنة، معلم قرآن.

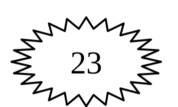
- عبد الإله وكان يبلغ من العمر 47 سنة معلم قرآن.

---

(1) - مدينة للطوارق.

(2) - مقاطعة للطوارق.

(3) - مدبنة للطوارق.



- يوسف، 67 سنة معلم قرآن.

بـ: الشيريفن (وي ن) الويليتن[1]

موح أڤ محمد 44سنة، له 10 تلاميذ.

أحمد أڤ أحمد الزاي، 54 سنة، وكان له 3 تلاميذ.

محمد أڤ عبد الكريم 54 سنة ، وكان له تلميذين.

إيشعاتن أڤ أحمد السرعيد، 49، سنة كان له 3 تلاميذ.

عبد المنى، 52 سنة .(أڤ الرومري) .

عبد الوعيض أڤ رومري، 49 سنة، له 3 تلاميذ.

موح أمادوأغ الحسن 59 سنة كان له تلميذين الطيب 58 سنة، كان له تلميذين.

هاشم، 62 سنة. تلميذين.

ألياس أڤ هوكاشاتا، كان له 4 تلاميذ.

إبراهيم أڤ أحمد، 54 سنة، وكان له 3 تلاميذ.

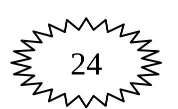
سليمن أڤ الياس 29 سنة، كان له تلميذين.

رضا أڤ الحسن، 52 سنة، وكان له تلميذين.

الحسان أڤ فانجير، 53 سنة. وكان له 3 تلاميذ.

---

[1] - مقاطعة للطوارق.



وهناك مرابطين معلمين في كل من إيجاوانجاواتن وعند الشيريفن ولدى الشيريفن الإيخرخيرن ولدى إيقدالن الشرق ولدى العرب وفي فرع ياديس. لا نرى عرضهم وعرض ما كانوا عليه لأننا في هذه الدراسة نكتفي بالنماذج المذكورة أعلاه.

أما عن أداء الصدقات: فإن بعض المرابطين يعوضون إنتاج تامسدق[1] (الصدقات) لصالح الفقراء والبعض الآخر يحتفظ به بيت المال....

يعين مرابط واحد في كل قبيلة للقيام على أمر الصدقة. فمثلا عند كال أرلال ف، الحسن هو الذي يجمعها من الإيجاوانجاواتن:....

وإن الصدقة لا بد وأن تعود على القبيلة التي منها أخرجت، فإذا لم تعط للإمام نفسه فإنها تعط لمرابط آخر من قبيلته.

ويبقي رئيس الأماجر نصيب عنده للعابري السبيل.

إن إخراج الصدقات عند قبيلة إيغدالن رأينا سابقا أن القائد أو الشيخ في البعض من القبائل يقوم هو نفسه على جمع الصدقات ليحققه دراهم ... في حينوفي مرات أخرى فإن هناك قائمون عليها من فروع القبائل.... وتؤخذ الصدقات على كل المنتجين من ما يملك القبائل من مواشي وأموال. في حين إن الإخراج على الحمير والأحصنة غير وارد لأنهم غير منتجين وبالتالي فهم معفيون من الإخراج عنهم.

---

[1] - كل خراج باللغة الترقية وتقابل الصدقات والزكواة ...

إحصائيات للمدارس القرآنية لـ:02 أفريل 1939 ولنختصر مثالناعلى مقاطعة تامزكاي Tamamskey تامنراست فلقد كان بها الإحصاء لهذه المدارس على النحو التالي:

ففي دار السلامي المدينة، كان المعلم فيها هو مرابط هو عبدو دانعبد الرحمن وكان له 7 تلاميذ ويعلمهم القرآن، وهو من أتباع الطريقة التيجانية التي كان بها (حاجي سنة 1929). وفي مدينة جيبلاوة كان القائم على تعليم القرآن بها هو سعيد أدان كمايي، وكان له 11 تلميذا وهو من أتباع الطريقة القادرية، كما كان المعلم المرابط عيسى الدان إدريسا في جيبلاوة أيضا وكان له 7 تلاميذ والطريقة المتبعة عنده كانت هي الطريقة القادرية[1].

---

[1] - كل ما ورد من إحصائيات أخذناه من كتاب Francis,Nicola.,Tamessna,imprimerie nationale, Paris,P249

الفصل الثاني

الخلفيات الثقافية في ورقلة

الخلفيات الثقافية في "ورڨلة"(OUARGLA) [1]

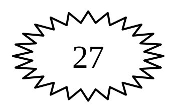
إن الغرض من هذه الدراسة هو إبراز الخلفيات الثقافية في كتاب ورقلة: OUARGLA وهو الكتاب الذي ألفه بالبربرية موريس جاردان Maurice Jardon وقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ج دي لور J.Delheur هذه الخلفيات من حياة الورقليين في بيوتهم. ومن ما يأكلون. وعن الحرف التقليدية عندهم. وعن الحمار عندهم. وعن الموت بورقلة. وعن ما يجلبون من النخيل. وهي كلها موضوعات تأتي متناسقة في الكتاب الأول مكونة ما يمكن تسميته بـ من الثقافة الورقلية. بمعنى ذاك الجو الذي كان الورقليون يعايشونه.

سوف ننظر في ما إذا كان المؤلف قد رسم هذا الذي اصطلحنا عليه بـ"الجو"[2] رسما يعكس نفسية الورقلي أحسن عكس. أو في ما إذا كان هذا الرسم لا يصور الحياة الاجتماعية الثقافية لهم بما فيها من تطابق. وسوف نحلل من حين

---

[1] - ورقلة عنوان كتاب لـ Maurice Jardon من الآباء البيض بورقلة:وهو اسم مدينة بالجنوب الجزائري.

[2]- يعرف مالك بن نبي الثقافة بالجو الذي يعمل على نحت شخصية الفرد...أنظر مشكلة الثقافة،ترجمة عبد الصابر شاهين دار الفكر دمشق 1980



لآخر الظاهرة التي سوف نقف عليها، مستخدمين الأدوات العلمية لكل من علم النفس وعلم الاجتماع. كما يمكننا في حالات كثيرة العودة إلى التاريخ وبالأخص التاريخ الثقافي لهذه البلدة: ورقلة. (وأما عن موضوعات الكتاب الثاني والذي جاء يحمل عنوان الزواج في في ورقلة فإننا سنخصص له بحثا مستقلا لاعتبار المادة التي يحتويها (أكثر من 530ص)).

يبدأ الكتاب بتقديم من جورج مارسيي Georges Mercier وهو مطران قديم بالأغواط يشيد فيه بالنصوص البربرية من موريس جاردان وبالترجمة التي كانت وافية من دي لور "دون تقديم أدبي او أتنوغرافي ". -وحسبه - فما يمينزاه خطان: هما المثابرة والرزانة إنه دراسة في لغتها الأصلية. ومن وجهة نظر ودية أخوية وصبورة حياة الورقلي بالمنزل غذاؤه حرفته نخيله حيوناته العائلية حفلات زواجه ... بادر كما يقول –حسب ما جاء في (المسوعة حول تنمية الشعوب رقم73) "بحوار مركز حول الإنسان وليس على السلع والتقنيات" وهذا الحوار الصحيح للحياة وللقلب يفترض نجاح التنمية أول حق للشعوب المحرومة من الإرث وبمفتاحها تأخذ بتربية الإنسان وبترقيته الروحية والأخلاقية، حيث كل إنسان في العالم يطمح بالشرعية الحياتية أكثر[1] ...وينهي التقديم مرة أخرى بالإشادة بالمؤلف وبالمترجم كما يأتي على إقحام لمثل يقول أنه عربي يقول هذا المثل

---

[1]- أنظر مقدمة الكتاب التي كانت من جورج مارسييه وهو مطران قديم بالأغواط ص1.

عندما يتعلق الأمر بالشقاوة "عندما تزور أعمى أغمض أنت الآخر عينيك "[1] وهي في نهاية المطاف الطريقة الوحيدة كي لا تتحاور علميا لكن بأسى مع مرآتك.وسوف نقف بعض الشيء مع هذا المثل الذي قال عنه أنه عربي وللحقيقة أننا لا نعرف لهذا المثل رسما سواء أتعلق الأمر بالأمثال العربية أو حتى المحلية ثم أنه معروف في الأدب العربي أن لكل مثل مضرب ومعروف أيضا أن الأخير لا يمكنه أن يكون إلا متناسقا والعادات والتقاليد العربية ومنه فإن هذا المثل لا نجدله رسما وإنما كان إقحامه هنا إنما كان من قبيل التعرض للأمثال وتوظيفها لأغراض غير الأغراض التي رسمت لها.

في العنـوان الموسـوم بحيـاة الـورقليين في بيـوتهم يحـاول مـوريس جـاردان أن يقـسم المجتمـع إلى طبقـات التجـار هـم الملاكـين للريـع الـذي تجنيـه التجـارة وطبقـة أخرى هي الطبقة الغالبـه -حـسبه- في البلـد وهـي طبقـة العـاملون في البـساتين ومـن هذه الأخيرة تبرز من أبنائها المجندون في الجيش والإداريين وهـي الطبقـة التـي يـسميها أو التـي هــي جـديرة باسـم الـورقليين سـوف نلاحـظ فـيما بعـد أن هـذا التقـسيم للمجتمع سوف يكـون معتمـدا في كـل تحلـيلات صـاحب الكتـاب والورقلـون بـالتعريف

[1] - قد يكون المثل هذا أوروبي حيث لا نجد له أثر في الأمثال الجزائرية

هم سكان غير عرب، وربما جاؤوا هكذا ليسقطوا على ورقلة كما سقط حجر سارتر يوما ما على البسيطة[1]

إن هؤلاء الذين يطلق عليهم صاحبنا اسم الورقليين هم ليسوا عربا ولا حتى مزابيين وإنما هما عرق (......). ومن الغريب أن صاحب الكتاب يقيم أقاويله انطلاقا من عائلة كانت له علاقات متينة بها. يقيم بل ويسقط كل تحليلاته انطلاقا منها هذه العائلة هي عائلة الحاج سايح عبد القادر.

فبعد أن يتمادى في إيفاء التعجبات حول هذا التزايد الرهيب لها فإنه بالمقابل يقف عند حصاد الموت لهم من دون أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دوما تقف وراء ذلك. بل ويختصرها في الفقر والحرمان ولا [يأتي على من تسبب في ذلك. وكأنه لا يرى الأسباب الحقيقية التي تقف وراء نتيجة الحرمان والفقر (والإحصائيات معروفة في ذلك ممكن العودة إلى الأرقام)[2]. لكن اعتماد هذه العائلة بالضبط وتشريحه دون الوقوف على العلل الأولى التي وقفت دوما حائلا وراء تكونه الجسماني ومن ثمة التنشئة الصحيحة لها أو تثقيفها كما يحلو لأهل الحضارة أن يتكلموا .

[1] - تدعي الوجودية أن الإنسان قذف به في هذا العالم. أنظر تفاصيل ذلك في جون بول سارتر الوجود والعدم

[2]- يراجع ذلك في كتاب أبو القاسم سعد اللـه، تاريخ الجزائر الثقافي دار الغرب الإسلامي

كما يخوض صاحب الكتاب في تفاصيل دقيقة عن أسرة ها الحاج والغرض هنا واضح ويتجلى في الخوض في التركيبة الاجتماعية للعائلة كي يبرز مفاتنها ومن هذه المفاتن تعدد الزوجات وتعدد الأطفال والولدان وما ينجر عن ذلك من مشاكل بخصوص حالات الطلاق حيث) الذكور تتبع الآباء والإناث يتبعن الأمهات وللحقيقة نقول أن هذه الأخيرة بل الكل يتبع الأمهات في حالت ما قبل الرشد أما ما بعد الرشد فإن الكل يذهب مع الآباء وهي عادات تكون قد ترسخت في المجتمع ليس الورقلي(النموذج) وحده بل في المجتمع الجزائري ككل بفعل العادات والتقاليد التي ورثها هذا لأخير من التاريخ بل من القيم التي طالما حافظ عليها حتى مع المنعرجات التاريخية. وتبقى الحالة أو العينة التي يقدمها الكتاب حالة شاذة بل وغير مبررة على جميع المستويات.ومما يذكر صاحب الكتاب بخصوص التنشئة الاجتماعية أن المرأة(عائشة) والتي تزوجها الحاج أخيرا كانت "تذهب إلى الأخوات (Les soeurs) وتتعلم عمل الزرابي"[1](Jardon,.M , J. Delheure ,Ouargla,t. P10,(Algerie) national -Fort). وهنا نفتح قوسا لنقول أن هاته النسوة لا تعلم شيئا فحتى حياكة الزرابي تتعلم من الأخوات، عجيب هذا وكأن مهنة الحياكة لم تتوارث عبر الأجيال وللحقيقة نقول أن الحياكة كانت دائما مهنة توارثتها الأجيال عبر العصور ولم تكن يوما ما تراثا أوروبيا حتى تعلمه

---

[1] - أنظر M. Jardon,Ouargla, t, J. Delheure ,Fort- national (Algérie),P10

الأخوات للفتيات الورقليات أو غيرهن لكن صاحبنا كي يبرز موات هذه الأخيرة يرسمها على أنها لا تعلم شيئا[1] .

وفي الصفحة 12 يصور لنا العيش النكد على لسان محرز (أحد أفراد الحاج)وينس أن يقف على الأسباب الحقيقية التي كانت دائما وراء هذا النوعمن العيش ففي نظرنا إنه دائما النتيجة الحتمية لعامل الاستعمار[2]

بل إن صاحب الكتاب يذهب إلى أبعد من ذلك حين يتدخل في تحليل العلاقة الاجتماعية التي تربط أفراد الأسرة بعضها ببعض فالحب أو التحابن أفرادها يقارنه بذك الذي هو خاص بالأوروبيين وكأن تقاليد هؤلاء القوم هي عينها التقاليد الغربية!

ويركز أيضا على حالة مرض أحد الأطفال وكانت الحمى تعصره وكانت أمه تبكيه وهو على تلك الحالة فيأتي الأب ويحاول إقناعها بأن الذي أعطى هو الذي يأخذ، وما الشجرة سوى لمالكها. وتأخذ هي الأخرى بالنصيحة لتمسح دموعها قائلة كلامك هو الكلام الصحيح وينفد صبرها على ابنها لتسلم أمرها للـه. والحقيقة أن صاحب الكتاب ينسى أو يتناسى أن هده المعاناة هي وليدة المتسبب فيها، وليست وليدة العادات والتقاليد لأن العادات والتقاليد والتمسك بها ما هي سوى

---

[1] - أنظر تفاصيل ذلك، أبو القاسم سعد اللـه، تاريخ الجزائر الثقافي.

[2] - أنظر تفاصيل أكثر، فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة ،المحمدية، المغرب

نتيجة وتحصيل حاصل، ما كان يقع وما يمكن أن يقع من ضر بالعائلة هذه أو بغيرها.

وعندما يأتي على زواج أحد الأبناء فيصور أن عائلة الحاج ترغم الأبناء على ما اختاره الأولياء لزواج الأبناء. ونقول حينئذ أن هذه العادة هي الأخرى لصيقة بالتقاليد وهي من الموروثات التي اعترضت منعرجات التاريخ ليس إلا والدليل على ذلك أننا اليوم نراها تتلاشى ولا يمكنها أن تكون الوجه الحقيقي للورقليين أو لغيرهم. وما هذا فإن الهمز واللمز من صاحب الكتاب تسكن وراءه خلفية ثقافية حين يتأنى ليقول "أن البنت الورقلية بإمكانها تغيير رأي عائلتها وهذا لن تجده عند العرب"[1]. ويسرد بعد ذلك قصة مؤكدة على ذلك.وهنا بودنا أن نتوقف قليلا لننظر في هذه الخلفية الثقافية:

- أولاها أنها تصور للقارئ أن المجتمع الورقلي قسمان عرب وورقليين! كما يحلوا لصاحبنا تسميتهم.والغرض هنا واضح هو تكريس سياسة فرق تسد. هذا أولا.

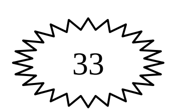
- وثانيا: إن الغرض الآخر هو بث نعرات التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

- وثالثا إذكاء الروح العنصرية ويتجلى ذلك من خلال هذا المثال الذي صاغ به حكايته.وكأن هؤلاء الآباء[2] إنما وجدوا بتلك المناطق إلا لهذه الأغراض والكاتب

---

[1] - أنظر M. Jardon,Ouargla, t, J. Delheure, Fort- national (Algérie) ,P18

[2] - أنظر تفاصيل أكثر في موضوع الحركة التبشيرية في الجزائر في القرن 19 كتاب خديجة بقطاش.



جاردان أحدهم.وفي علمنا فإنه لا يوجد مجتمعين متمايزين في ورقلة بل يوجد مجتمع واحد.

وفي لفتة خاطفة يؤكد على مدى التقاليد المرسخة في الزواج كطلب الرخصة من القايد[1] (caid). وكزيارة الأولياء قبل القران و..فبخصوص النقطة الأولى نقول أن طلب الرخصة من "القايد" هو عورة من عورات الحكم الفرنسي فلقد كان يضايق المواطنين حتى أنه يتدخل في أحوالهم الشخصية! وأما عن زيارة الأولياء قبل القران فإن هذا كان يرسخ بعناية وبمباركة من سلطات الاحتلال لغرض بل لأغراض لا يسمح هنا المقام لذكرها ولكن الغريب أن صاحبنا ينسى أو يتناسى أن عقود الزواج كانت تتم في المساجد وأغلبيتها لا تعير اهتماما للعقود المدنية (بسبب أنها تحت نير الاحتلال).

وهاهي خلفية ثقافية أخرى يحسن صاحب الكتاب النسجعلى أبعادها،ففي مجال العلاقات الاجتماعية وبالخصوص عن الاستعمال اللغوي فإن تقسيما آخر ينشئه لهذه المسألة الثقافية الجد هامة إذ بموجبها يسعى عنوة إلى زرع فتنة التباين الثقافي اللغوي الذي يفترضه بل يختلقه من الذي يسميه: أن بعض المجتمع بورقلة يتكلم ورقلي والبعض الآخر يتكلم عربي ولا نعلم حتى هذه السنة، أن المجتمع هذا له هذه الخاصية أي خاصية التكلم بالورقلية، وخاصية

---

(1) - أنظر،M. Jardon,Ouargla,P20

التكلم بالعربية والذي هو معروف أن المجتمع هذا لا يتكلم سوى لغة واحدة هي العربية ثم ما هي الورقلية للحقيقة نقول أن ما أطلق عليه بالورقلية لا أثر لها لا في السابق ولا اليوم ولا كانت تكون يوما ما بدليل أن كل أهل ورقلة يتكلمون لغة واحدة هي العربية. قد تكون في شكل اللسان الدارج ففي كل الأوطان توجد مثل هذه الحكاية، أي حكاية الدارجة والفصحى. أما غير هذا فلا وجود لما دعاه بالورقلية الـلـهم إلا تواجد لغات أخرى في المعامل البترولية، ولكن هذا اليوم مع التواجد الصناعي. وهذا الذي هو معروف في الجزائر والذي به أن كل الجزائريين جزائريون في أماكن العمل أي في المصانع. واليك النص الذي يؤكد هذه الخلفية عند صاحب الكتاب يقول:"الذي هو معروف عند أهل الدار أن الحاج (وهو هنا نموذجا يأخذ طابعه التعميمي) لم يذهب إلى المدرسة في صغره غير أنه مع بيعه لمحاصيله الزراعية تعلم بعض الكلمات التي من خلالها يتعامل يعرف العربية لكن لا يتكلمها إلا عندما يكون عند العرب على غرار ذلك فإنه مع أهل الدار والورقليين فإنه يتكلم ورقلية.

الرجال فيما بينهم لا يتكلمون الورقلية إلا لما يكونون مع النساء اللاتي لا تعرف العربية بالمنزل:يحبون أن يتكلموا العربية من حين لآخر لكن ليس دائما."[1]

[1] - Ibid,P22

وفي نفس السياق وحينما يتكلم عن بلخير ومحرز[ص 24] (وهما من عائلة الحاج العائلة النموذجية في الكتاب) فيصور أنهما متعلمين للفرنسية يتقنانها يقرآن ويكتبان بها حيث أنها أي الفرنسية تخدمهما. وللحقيقة نقول أن اللغة الفرنسية وإن خدمتهما فإنما كان لها ذلك من أنها لغة المحتل الشيء الذي يتغاباه صاحب الكتاب، ثم إن اللفتة هذه ملفتة في الكتاب، حيث يعلمانها "للورقليين" (بمفهوم صاحب الكتاب) دون سواهم وهي النظرة العنصرية التي طالما فاخرت بها النزعة الاستعمارية بل نقول التي طالما فاخرت بها فرنسا الحضارة!

وبصد حديثه عن حالة المرض التي أصابت الحاج سايح نموذجه المختار(لسنا ندري ما إذا لم يكن هذا النموذج مازال حيا يرزق إلى اليوم وإلا أتينا بشهادته) يقدم بل يدس سما آخر أكثر عنصرية ومغرض أكثر من سابقيه هذه النظرة هي أنه لا "لا يترك محاصيله الزراعية تنضج بل يأكلها نية (خضراء)حيث أن الورقليين يخشون من العرب الآكلين لمحاصيلهم هذه: يأتي العرب في الخريف يخيمون بأطراف ورقلة ويأتون على كل ما يصادفونه من محاصيل، سالبيها من مالكيها إذ لا ينتبهون."[1] هذه النظرة للعرب وهذه التفرقة لما يسميه بالورقليين ولما يسميه بالعرب يصور من خلاله النموذج الأول كادا مجتهدا والثاني لا يهمه إلا ترقب وقت القطف حتى يسلب وينهب ما جناه الورقليون وكأن المسألة هي مسألة

(1) -Ibid, P26

عنصرين من البشر: ثم أن هناك عنصرا محببا والآخر ممقوتا وإن الثاني ليس له سوى السلب والنهب وهي الصورة المشينة التي يريد أن يصل إليها صاحب الكتاب لغرض واحد ووحيد هو بث روح التفرقة وزرع العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد وكأن صاحب الكتاب تعلم من الديانة النصرانية هذه الروح. وأيضا كأن هذه الأخيرة كانت دوما وأبدا في خدمة فكرة الاستعمار.

وهناك ألف وألف مثال على هذه الروح الحاقدة التي يبثها هؤلاء الذين يدعون أنهم رجال الدين المسيحي وهم في خدمة الأغراض الاستعمارية.ومن هذه الأمثلة تلك التي يصور فيها في الصفحة 32أن العرب سارقون للتمر وأن ما يسميهم بالورقليين يجندون عندما يأتي الخريف لحراسة بساتين النخيل. والعرب– حسب رأيه – "هذه الفئران هم السارقون العرب الذين يأتون في الخريف."[1] إن جملة كهذه لا تؤهل صاحب الكتاب لا لأن يكون رجل الشارع ناهيك عن أن يكون رجل دين مسيحي بل يحمل رتبة أب في الدين المسيحي لأن المنطق يقول أن السرقة آفة ذميمة لا يتحلى بها جنس عن جنس وإنما هي قسمة مشتركة بين السفلة في الأمم. هذا أولا وثانيا أن التقسيم للمجتمع الورقلي على هذه القاعدة إنما جاء من قبل بث الفرقة وبث البغضاء والتحاسد بين أبناء ورقلة وهذا إنما يصور النفسية التي كان عليها ما سمي بالآباء البيض. كما يصور طبعة العمل

(1) - Ibid, P32

الاستعماري حين يتم من تظافر قوى شتى ومن بينهم هنا رجال الدين المسيحي كأن المسيح عليه السلام نصحهم ببث الفرقة وببث الحسد والتباغض وما نسميه اليوم بالروح العنصرية. لكن المسيح بريء منهم ومن أعمالهم الشيطانية وهو العمل الذي يدخل حسب رأينا في كيد الاستعمار لأن هذا الأخير يمكنه أن تكون له أشكال عديدة كلها تعمل كما قلنا متظافرة معا من أجل غاية، هي تمزيق العلاقات الاجتماعية. وصدق من قال: "ولن نستطيع أن نتفهم عمل الاستعمار إلا ريثما يثير ضجيجا كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة, أما حينما يكون من تدبير فنان أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا.." [(2)].وعلى هذا كانت دوما شاكلة الآباء البيض في الجزائر.إن العمل الاستعماري هنا يتفنن في إعطاء الصورة المشينة للمجتمع بورقلة ويغفل بل ويتغافل وجوده هو نفسه كمبشر بالروح التي يفترض أنها ترفع من قيمة الإنسان ولا تنقص منها الروح التي جاءت بها فرنسا للجزائر، والتي -كما قيل الروح أو كما يقال- الروح الحضارية لأوروبا!. لكن ومع الأسف إنها الروح الممزقة للمجتمع بورقلة. قد يقول السائل أن الذي تكلم عنه صاحب الكتاب كان حاصلا في المجتمع بورقلة ونحن لا ننكر عليه كلامه هذا وإنما ننكر عليه أن يتعلق ما قال بعنصر اجتماعي واحد. ثم هبه موجود لكن

[(1)] - أنظر في هذا مالك بن نبي ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1980.

رصده وتدوينه بالصيغة التي جاءت في الكتاب إنما كانت من باب "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.."[1]

ويختم صاحب الكتاب حديثه عن الحياة بورقلة بتقديم نصائح لإخوانهمن الأوروبيين حتى يمكنهم التعايش مع أهل هذه البلدة من الورقليين (بالمعنى الذي نبهنا إليه سالفا). غير أنه وخلال هذه النصيحة تتجلى النظرة التمييزية وذلك حين يجعل من أن الذكاء خص به اللـه الأوروبيين دون غيرهم فيقول: "إذا كان اللـه قد وهبك ذكاء أرقى منهم لأجل عملك ولتأهل يديك هب لهم منه، بين لهم أنك تحبهم وأنك..." وهذه المسألة تتنافى والروح العلمية التي تقول أن الذكاء قسمة بين البشر وليس الذكاء خاص بجنس معين. والفرق الوحيد إنما يكمن في أن بعضهم توفرت له شروط تنميته والبعض الآخر لم تتوفر لهم وكان لهم ذلك بـتكاسل وبتراخ واستسلام للراحة وللكسل يوما ما في تاريخهم.

وبصدد ذكر الأكل والشرب بورقلة، يذكر، بل ويركز على بعض العادات السيئة المنتشرة في المنطقة. ومنها تقديم أنووية التمر لمعلم القرآن الكريم وبعض التقاليد التي تعبر عن الكره الشديد للأنثى. ومن التقاليد-حسبه- شرب اللقمي المخمر.

---

[1] - سورة البقرة آية 119.

كما يذكر العرب مع الجراد. فيقول: "في عام الجراد كان العرب يحملون إلى ورقلة أكياسا كبيرة من الجراد لبيعها أو لتبديلها بالتمر والورقليون يحبون كثيرا الجراد حتى أنهم يستبدلون الطبق منها بطبقين من التمر وكذلك يقدمون التمر للفقراء وللزنوج[1].

ومن الصفات التي يصف بها محرز(وهو أحد أفراد الحاج سايح) وفي تناوله للأكل إنما يأكل "ككلب شره". وهناك الكثير من الصفات الأخرى التي يصف بها أفراد العائلة أثناء تناولهم الأكل.

ونحن عندما نقف اليوم قليا عند كل هذه النعوت إنما لنقول أن صاحب الحضارة والتحضر يريد أن يوصل من خلالها جملة من "عملية القضم" للنسيج الاجتماعي هناك ومن هذا القضم: يريد أن يوصل فكرة أن الأوروبيين أرقمن حيث المأكل والمشرب دون أن يراعي لعنصرين هامين في القضية اهتماما.

أولها أن التباين الثقافي يفرض تباينا في السلوك اليومي لحياة شعب ما. وليكن هذا الشعب كما هو مصور في الكتاب هنا هو الشعب الورقلي.

وثانيا ظن أن السلوك الفردي إنما هو سلوك اجتماعي مربوط بالوتيرة الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك وهذا صحيح من الناحية الاجتماعية. وبعيدا عن كل هذا أو ذاك فإن نمط المعيشة هو الآخر يفرض تكيفا معينا مراعيا للبيئة

---

[1] - M Jardon,Ouargla, P5

وللمجتمع الذي تعايشه هذه البيئة أو تلك من أفراد المجتمع. ونحن حينما نقول أن نمط المعيشة -كان للورقليين- هو كذا أو كذا. فإن صاحب الكتاب ينسى بل يتناسى أن الذي آل إليه وضع القوم إنما كان من تدبير ذاك الفنان بل القارض أو القاضم الذي ظل يقرض في النسيج الاجتماعي للأمة وللأفراد. إنه عمل الاستعمار-(لقد كان يصادر أحسن بل وأجود أنواع التمر من أهلها ويصادر أحسن وأجود الخضروات منهم ليبعث بها إلى باريس فكيف بحال القوم يوسمهم الرخاء)-ح الذي لم يُبق ولم يذر لأهل ورقلة ما يمكنهم من أن يكونا قوما متحضرين في المأكل وفي المشرب. أعني أن القوم وحسب تحليل صاحب الكتاب باتوا يعانون المسغبة. وإن الذي يعاني هذه الحالة الاقتصادية- بفعل "معامل الاستعمار"- كان على أهل الدين المسيحي أن يأخذوا بيديه إلى الحياة الكريمة وأول خطوة كنا نراها لذلك هي:

أولا كان عليهم أن يضعوا مخططا اقتصاديا يكفي لإزالة الغم والمسغبة منهم، عوض التلذذ بوصفها، بل والتفنن في الوصف قصد أغراض تخدم فكرة الاستعمار. ولا يمكنها في شيء أن تخدم بأي حال من الأحوال"المعذبون في الأرض". إنها الرسالة التي كان يفترض أن يكون قد قدمها السيد المسيح.

ولكن كأنهم (أي الآباء البيض) من أولئك القوم الذين قالوا "...ليس علينا في الأميين سبيل..."[1].

وفي موضوع متعلق بالبطالة يقر صاحب الكتاب أنه بعائلة متكونة من عشرة أشخاص أو أكثر نجد ثلاثة أو أربعة يعملون بينما البقية تعيش على ظهورهم."[2]

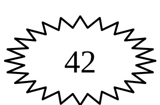
إن هذا الوضع المأساوي لا يعود إلى الورقليين بحد ذاتهم. وإنما يعود إلى سياسة التفقير والتجهيل التي مارستها فرنسا الحضارة! في مستعمراتها وورقلة إحداها والإحصائيات موجودة ومعروفة لدى الخاص والعام. وربما أحسن حجة في هذا المجال هي: تجمع جل الكتب التاريخية أن الجزائر قبل سنة 1830 كانت تصدر القمح فنتساءل كيف كان لها ذلك والورقليون لا يعملون إلا بهذا العدد القليل من الرجال إن لم نقل الزهيد. نعتقد أن رجال الاقتصاد لا يرون الإنتاج إلا من عمل.

وفي مقام آخر يدخل صاحب الكتاب في تناقض لما كان مع الصفحات السابقة والتي أشرنا إليها لما يجعل من العرب جنس توصم به أذم الصفات ومنها صفة السرقة، بينما حين يتناول البطالة كموضوع له يرى بأنهم مالكون لبساتين

---

[1] سورة آل عمران آية 74.

[2] - Ibid,P70



النخيل مع "المزابيين" (نسبة إلى سكان وادي ميزاب بغارداية: المدينة الجزائرية) وأما الذين يسميهم الورقليين فهم عمال بها لا ملكية لهم إلا من اليسير. ومن ذلك بعض التجارة. ويكمن الجواب على التساؤل في أن هؤلاء القوم من العرب من جهة هم رحل لا يأتون إلا في الخريف للسرقة، ومن جهة أخرى هم هنا مالكون كبار للنخيل إنه التناقض المنطقي الساطع البرهان. وكان الغرض منه هنا إظهار ما أسماه بالورقليين أنهم شادين على أزرهم، فبسواعدهم لا يعيشون عيلة على غيرهم في مقام كهذا الذي تكلمنا عليه. وفي مقام آخر كما مر معنا غيرهم (العرب) هم العيلة لأنهم سارقون وناهبون لخيرات الخريف.

وبالمقابل نجده يتكلم في مقام آخر عن أحد أفراد عائلة الحاج سايح وهو بلخير. فهذا الأخير جدي في عمله (يمتهن حرفة الحدادة) وهو الذي يغطي جميع الحاجبات سواء للورقليين (كما تحلوا له تسميتهم) أو حتى لغيرهم من العرب(التقسيم المغرض عنده). وهو على هذه الجدية في العمل لأنه ورقلي[1] أي بربري الأصل كما سبق وأن أشرنا للكلمة حسب فهم صاحب الكتاب).

وبعد أن يتكلم عن الحمار والدور الذي يقوم به كوسيلة عمل يخصص مكانة لا بأس بها للتكلم على صاحب العائلة الحاج سايح الذي وافته هذه المرة المنية فيخصص له هو الآخر صفحات يتتبع من خلالها كل مراحل عملية التأبين

---

(1) - Ibid,P82

وكل ما يرافق ذلك من عادات وتقاليد وهو يركز عليها كثيرا طبعا لغرضأو لآخر إلى أن ينتهي بالكتاب إلى تسجيل ملاحظاته الخاصة. ولقد لفت انتباهنا فيها أنه يذكر أيضا قصة غريبة عن موت امرأة عربية حيث يذكر أن هذه المرأة أمنا سول*soule* -كما تدعى- (ولا يذكر اسمها الحقيقي و الكامل حيث لا يعرفه كما يدعي) كانت تجول وتصول إلى أن أصيبت يوما ما بالجنون فيتفنن في وصف حالتها هذه إلى أن يصل إلى أنها وفي إحدى الأيام قيل أنها ماتت (والواقع أنها دخلت في غيبوبة) فدفنت إلى أن مر بقبرها في اليوم الثالث أحد المارة فسمع أنين في حفرة القبر وأخرج منه المسكينة ولما أوقفها وكانت في السابق فاقدة للعقل قال الجميع أنها كانت قد دخلت في خصومة مع عزرائيل ومع الأموات [1]. إن رصد قصة غريبة كهذه إنما أريد منها عدة أغرض نذكر منها:

1- أن العرب أغبياء لدرجة أنهم يدفنون مرضاهم أحياء.

2- أن الحكايات الخرافية هم المتسببون فيها.

3- أن الصورة أو المنظر القبيح هذا من إنتاج عربي.

والحقيقة نرى في هذه القصة تشويها نابعا من عنصرية لا مثيل لها عنصرية تصب في خدمة الفكرة الاستعمارية وذلك كون أن العرب ممثلين بهذه الحلة الشاذة التي يذكرها صاحب الكتاب لأن الموت والتحقق منه أمر تعرفه كل

---

(1) - Ibid,P142

الأمم فكيف بهذه الأمة لا تعرف ذلك (يكون الأمر كذلك إذا كان ذلك من البدائية والعرب أمة لا تعيش ففي فترات ما قبل قبل التاريخ بل لهم تاريخ وحضارة. ثم أنة هناك فصل تام في عبقريتهم لما هو خرافة ولما هو حقيقة. وأما عن المنظر أو الصورة القبيحة فإن الحالة الشاذة لا يمكنها أن تشكل في شيء ما الصورة الحقيقية باعتبار الشاذ تربطه قاعدة" الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه" وأما عن الغرضية فمعروفة وواضحة للعيان حتى أن بعضهم قال في رسم الصورة الحقيقية للاستعمار:

"عبثا تشحذ أظفارك حمرا للحصاد عبثا تلبس هذه الأرض أثواب الحداد"

هذه بعض العينات التي استطعنا رصدها من الكتاب "ورقلة" لصاحبه جاردان وهو مرسوم بحروف قيل عنها أنها بربرية، وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية دولار. والصاحبان معا من الآباء البيض عاش في ورقلة. والعبرة كل العبرة في أن تاريخ الشعب لا يمكن كتابته اعتمادا على هذا النوع من الثقافة ثقافة بث روح الحقد والكراهية في أبناء الأمة الواحدة سواء أكانوا في ورقلة أو في تمنراست أو في العاصمة أو في القبائل أو في تبسة أو في وهران أو في غيرها من دنيا الجزائر والحمد لـلـه رب العلمين الذي به تتم الصالحات.

الفصل الثالث

جاك بيرك والإشكالية الثقافية

إن الغرض من هذا البحث، هو إبراز الإشكالية الثقافية التي ماانفك يعمل على حلها جاك بيرك. من كون أنها إشكالية ذات أبعاد سيكولوجية جد معقدة، إلى كونها ذات أبعاد سوسيولوجية، إلى أنها ذات بعد أخلاقي، وعقائدي.

وهي المسائل التي عمل بيرك على تذليل الصعوبات التي اعترضته في عملية عصرنة عناصرها، وفي عملية تحديث أصولها. ومن هنا كانت الإشكالية التي وددنا بحثها على النحو التالي:

فإذا كانت المسألة الثقافية هي من مخلفات الاستعمار في الوطن العربي، وإذا كان هذا الأخير قد ولى بموجب أن الشعوب التي كانت خاضعة له قد تحررت، فإن الإشكال الثقافي لهذه البلاد هو إشكال على علاقة مباشرة **بالطبيعة التكوينية** للفرد العربي. ومنه فإن التخلف الثقافي يعود لهذا السبب.

وإذا كانت عملية التحرر عملية عارضة فبتاريخ هذه الشعوب وإذا كان هذا **العارض** (المعامل الاستعماري) لا أثر له عليها، فإن أسباب التخلف الثقافي على علاقة مباشرة بأصول أخرى غير التي بسطناها في الطرح السابق. ومنه فإن حل الإشكال الثقافي هو بالدرجة الأولى **حل لإصلاح في هذه الأصول**، وإذن فإلى أي

من هذين الطرحين يعود أو يتوقف حل الإشكال الثقافي في البلاد العربية حسب بيرك؟

لإيجاد الحل الأنسب لهذا، رأينا أن نبحث في المسألة معتمدين على مصادر جاك بيرك نفسه بالدرجة الأولى وفي مقدمتها المصادر التي هي على علاقة بالبحث، وعلى المراجع التي هي على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع بحثنا ثانيا .

ولد جاك بيرك Jacques Berque بفرندا[1] بالجزائر عام 1910 ودون بكل عمق العلاقات الفرنسية العربية والمتوسطية كرجل ميدان وعقل. فلقد كان رجل الميدان منذ 1934 في الغرب بالمغرب.أنّى أصبح مراقب مدني بعد عامين من الدراسة في السر بون. ولم تكن هاتان السنتان الدراسيتان لتشفع له ما وراء اهتماماته.فلقد أدى الخدمة العسكرية في المغرب الذي لم يغادره إلا في سنة 1939. وعاد ثانية إلى الغرب. و بالأطلس الأعلى مكنه نشاطه كإداري أن يقيم علاقات مع الشعب، وهو أيضا الشيء الذي أثر في مساره الثقافي والعلمي، فأخذ على عاتقه الاهتمام بعلم الاجتماع. وجاءت أطروحته الموسومة ب"البنيات الاجتماعية للأطلس الأعلى "لترشحته بأن يسلك سبيل الدراسات الإستشراقية، حيث شده فيها تغليب تفسير العصرنة عليها وتجلى ذلك واضحا من خلال البحوث التي

---

[1] - هي الآن مقاطعة دائرة من دوائر ولاية تيارت الجزائرية في الغرب الجزائري

كانت أنذاك قد أثرت ليس على الطلبة وحسب بل أيضا حتى على الباحثين المتخصصين.

وكان على هذه العين الأوروبية أن تنظر إلى العرب من واقعهم الحاضر أنذاك.

ففي سنة 1953 رافع ضد إسقاط السلطان بالمغرب. وأتم رحلاته إلى كل من مصر ولبنان .

وفي سنة 1956عين بالكوليج دو فرانس أنى تربع على كرسي التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر لمدة تنيف عن ربع قرن. وهو الشيء الذي سيعمل معه في متابعاته للبحوث[1] وفي الأسفار، وبمرور الزمن كان ينسج شبكته الخارقة للعادة إذ هي شبه إعلامية، متوسطية. كما عمل على إثراء كل اللقاءات على جميع المستويات. حيث تخرج على يده طلاب أصبحوا أساتذة وسياسيين.

ومع كل ذلك راح يترجم معاني للقرآن الكريم وله مجموعة هائلة من المؤلفات نذكر من بينها الإسلام في عصر العالم، العرب من الأمس إلى الغد،المغرب بين حربين،مصر،الإمبريالية والثورة. المغرب تاريخ ومجتمع، الإسلام في التحدي....إلخ من الكثير من الأعمال.

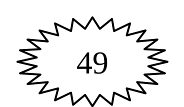
---

[1] أنظر- لأكثر تفاصيل من البحوث قدم الكثير - Rivages et déserts,Hommage à Jacques Berque, edition SinddbadPP275-297

في الثقافة: التطور والمفهوم

يكاد يجمع الباحثون أن الأصل اللغوي لكلمة ثقافة روماني، بل وحتى المعنى الدلالي هو الآخر روماني: فكلمة Culture مشتقة من Colère ومعناها يفلح، يقطن، يتعهد بالعناية يرعى ويحفظ- وتتصل قبل كل شيء بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة بمعنى الفلاحة وتعهد الطبيعة بالعناية حتى تصبح صالحة لسكنى الإنسان. وهي بهذا تدل على موقف العناية المشفوعة بالمحبة، مما يغاير جميع الجهود المبذولة لإخضاع الطبيعة لسيطرة الإنسان. لذلك لا تقتصر على معنى حرث الأرض بل يمكن أن تعني أيضا cult (عبارة) الآلهة، أي العناية بما يخصها دون غيرها. ولعل شيشرون[1] هو أول من استعمل الكلمة في أمور الروح والعقل. فهو يتحدث عن Excolere animum فلاحة العقل وعن cultura animi بالمعنى الذي نتحدث فيه حتى يومنا هذا عن العقل المثقف cultured mind لكننا لم نعد نحس بالمعنى المجازي الكامل لهذا الاستعمال... والسبب في عدم وجود مفهوم إغريقي مقابل لمفهوم الثقافة عند الرومان هو غلبة فنون الصناعة في الحضارة الإغريقية، فبينما كان الرومان يميلون إلى اعتبار الفن نفسه ضربا من الزراعة، زراعة الطبيعة، كان الإغريق يميلون إلى اعتبار الزراعة نفسها جزءا لا يتجزأ من الصنع تابعة للحيل البارعة الحاذقة، حيل "التقنية " التي يروض بها الإنسان، أكثر الكائنات جبروتا، الطبيعة ويحكمها. وما نعتبره نحن الذين لا زلنا تحت تأثير سحر التراث الروماني، عملا طبيعيا جدا ومن أهدأ الأعمال الإنسانية، أي حرث الأرض، كان الإغريق ينظرون إليه على انه عمل يتصف بالجرأة والعنف، وينطوي على إزعاج الأرض التي لا تنفد ولا تتعب والاعتداء

[1] - شيشرون Cicéron (106- 43ق م) كاتب وخطيب ورجل دولة روماني



عليها عاما بعد عام...."[1]. ورغم هذا التعريف الذي قدمته حنة أرندت Hannah, Arendt إلا أنها انتبهت إلى الأزمة الثقافية بدلالاتها الاجتماعية والسياسية-طبعا في البلاد الأوروبية-. وبا أنه ليس موضوعنا سوف لن نتطرق له.

وأما مالك بن نبي فيرى أن كلمة ثقافة لم تعرف للبلاد العربية سبيلالا في القرآن ولا في القواميس ولا عند ابن خلدون ولكن"ومع ذلك فإن تاريخ هذه الحقبة (يقصد العصر الأموي والعصر العباسي) يدل على أن الثقافة العربية كانت آنئذ في قمة ازدهارها" [2]

الثقافة المفهوم والدلالة عند جاك بيرك

ففي تساؤل لجاك بيرك في كتابه الإسلام في زمن العالم L'Islam au temps du monde عن ما هي الثقافة؟

يحاول أن يجيب عليه اعتمادا على تفنيد قول بول فاليري Paul Valéry الذي قال بعد الحرب العالمية الأولى "حضاراتنا الأخرى تعلم أننا متنا (وهو يقصد الثقافات)، وهو أي جاك بيرك يرى أن ثقافاتنا اليوم لم تمت وحسب مع نهايات القرن العشرين، بل تأكد ذلك واضحا للعيان. ولكنه يعود فيرى في الحقيقة أن

---

[1] - حنه أرندت، بين الماضي والمستقبل، ترجمة عبد الرحمن بشناق، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1974، ص229-230.

[2] - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، إصدار ندوة مالك بن نبي دار الفكر دون تاريخ، ص20

ميلادها لا ينتهي.[1] إن هذا القول من بيرك يفيد أن الثقافة تتجدد وهذه الأخيرة تنطوي على عدة معاني.

أولاها أن التجدد يمكنه أن يكون لشيء وجد بالأصل، ثم أتت عليه ظروف تاريخية فأتلفت متغيراته العرضية، في حين أن ثوابته أي جوهره لا يأتي عيه التلف. ومنه فإنه يعود للحياة ثانية.

وثانيها أن المتغيرات الثقافة يمكنها أن تتجدد على الأقل شكليا إذا كان الجوهر (أي الثوابت قد صارت رميما بفعل الانتقام[2] الذي تمارسه الأفكار في تاريخ ثقافة ما. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث أخيرا للمجتمع السوفياتي من فقدانه للمبررات الثقافي[3]، تجلى ذلك في الخروج المفاجئ لصاحب الغلاسنوست بإعلانه الشفافية والإصلاحات للمجتمع الذي أسلفنا هذا سياسيا. كما عبر عن الصيغة ثقافيا بل علميا فرار بعض العلماء السوفيات نحو الغرب. والأمثلة كثيرة في هذا المضمار. تعبر عن أن هذه الكتلة الثقافية قد فقدت مبررات

---

[1] - Jacques Berque, L'Islam au temps du monde, sindbad, Paris, 1984, P.102

[2]: لمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة راجع - Malek Ben nabi Le problème des idées dans le monde musulman

[3] - لمزيد وللتوسع حول الفكرة راجع: مالك بن نبي دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر دمشق، 1983

وجودها منذ 1989 وهو تاريخ سقوط جدار برلين.كما أن ظهور حركات مدمرة للثقافة في الغرب بات ينذر بالخطر منذ ظهور حركات الهيبيز (hippies).

يستعرض بيرك الكثير من الأسباب والدواعي التي كانت سببا في النكوص والاضطراب الثقافي في أوروبا. ولكننا وتماشيا مع هذا البحث المتواضع سوف لا نأتي عليها كلها بل سوف نلمح للبعض منها مما يتماشى ومنهجية هذا البحث. فهو مستاء جدا من الثورة التكنولوجية التي في نظره خلفت مجتمع "اللاّثقافة": المجتمع الذي عليه أن يساير الركب أي ركب التطور الصناعي وعليه في الوقت نفسه أن يخلق ثقافته. تلك الثقافة التي أتت عليها الثورة الصناعية يوما ما. وفي نظره فليس بالإمكان إعادة صياغتها من كلاسيكيتها بل من الممكن أن نبتدئ من منطلقات مخلفات هذه الثورة التقنية، باعتبارها خلّفت رصيدا هائلا من القيم ومن المبادئ، قد تكون مغايرة تماما لنظيرتها الكلاسيكية. ولكنها ثقافة الاتصال السريع والإعلام الآلي وثقافة التقنية بصورة إجمالية.

والمهم هو أن بيرك يكون قد انتبه إلى هذا الخطر الذي أصبح يداهم الثقافة الأوروبية. وعندما نقف قليلا عند قوله السالف نجد أن الثقافة التي يمكنها أن تتجدد إنما بسبب أن منعرجات التاريخ المعاصر هي التي رمت بها إلى الموات. فهو يتحدث عن اقتناع من أن الثقافة الغربية أصبحت تعاني فقدانها لمبررات وجودها. (طبعا بسبب ويلات الحربين العالميتين وبسبب ويلات ديان

بيان فو وبسبب دحر الثورة الجزائرية لاعتداء الجانب القيمي على الثوار الجزائريين في الجبال (وحين ينتبه رجل كبيرك لمسألة فقدان المبررات الثقافية للذات الأوروبية إنما يكون ذلك وليد فطانة رجل غربي ومستشرق! وهو الشيء الذي انتبهت له الكاتبة اليسارية حنة أرندت Hannah Arendt حين قالت وهي تتكلم عن التحول الثقافي من الفردانية إلى المجتمعية"... ومن الأسباب التي كثيرا ما حملت هؤلاء الأفراد على الانضمام إلى أحزاب ثورية أنهم وجدوا في أولئك الذين لم يقبلهم المجتمع بعض الخصال الإنسانية التي انقرضت في المجتمع"[1] .

وفي رأي جاك بيرك فإن الثقافة تبحث عن تعريف أكثر تعزيزا لها بحيث يفتح لها أسسا جديدة.واكتشافات جديد[2] . ثم يتساءل عما إذا كان بالإمكان اقتراح تعريف لها يكون بالحيوية وبالحركية التي هي عليها. وهل بالإمكان اقتراح تعريف للثقافة يكون مثلها حيوي وحركي؟ وهو يعني في ما يعنيه، أن التعريف الذي يجب أن يحدد الثقافة عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص المكونة لها. بحيث تكون الخصائص هذه ملمة من الناحية التعريفية بـأحد الأمرين:

الأول وهو أن يكون تعريف الثقافة تعريفا آخـذا في الحـسبان البنـاءات اللواتي يتربع عليها العصر. بمعنـى أن عوامـل المتغـيرات -ولأنهـا عـصرية- يجـب

[1] - حنة أرندت، بين الماضي والمستقبل، ص216

[2] - Jacques Berque, L'Islam au temps du monde.P102

أن تكون ثوابت فيها: الشيء الذي نستنتج منه أن بيرك يغلب في هذا الجانب عامل العصرنة على العوامل الأخرى.

ولتكن مثلا عادات وتقاليد أمة ما نسميها، س. إن هذه العادات وهذه التقاليد لا يمكنها أن تساهم في عملية البناء الثقافي إلا أن تصبح من عاداتومن تقاليد العصر انطلاقا من أن "لكل عصر ثقافته". وهو يساهم في تكريس: "فكرة ثقافة الهيمنة أو العولمة التي ساهمت في صهر بعض الثقافات لضرب الوحدة الثقافية وما يمثلها[1].

يقول حسن حنفي: "وانتشرت البحوث عن الأقليات العرقية والطائفية من أجل إبراز الخصوصيات والهُوّيات والتعدديات الثقافية للقضاء على وحدة الثقافة ووحدة الوطن ووحدة التاريخ ووحدة المصير المشترك"[2].

الأمر الثاني أن تكون الثقافة بها من الحركية ما يمكنها أن تشكل خاصية من خصائص ثقافة أي أمة. ومن هنا فإن الثقافة هذه هي تلك التي تأخذ في الحسبان عامل "الأرض المحروقة". وعليه فلا يمكن أن نتصور ثقافة يطلق عليها بثقافة التبعية، أو ما يمكن أن يطلق عليها بثقافة الخنوع والخضوع. وكل ما في الأمر أن

---

(1) - لتفاصيل أكثر أنظر محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت عدد228فبراير1998

(2) - حسن حنفي، صادق جلال العظم، ما العولمة؟ الطبعة الأولى دار الفكر دمشق1999 ص47

شكل الثقافة الإهليلجي هو النموذج المنتقى للثقافة التي ينادي بها بيرك. وعليه فمع منعرجات التاريخ تسكن ثقافة ما، ومع منعرجات العصر تسكن ثقافة أخرى أيضا. والنتيجة التي يمكننا أن نخلص إليها هنا أن بيرك يؤسس لثقافة العصرنة على اللاّثقافة:

ثقافة العصرنة هي في واقعها ثقافة العولمة التي سبق وأن أرشدناإلى تفاصيلها أكثر في الأطروحات العشر التي كتبها الجابري. وأما اللاّثقافة (أي على كل مجال حيوى-فطري- مصاب بما يمكن أن نطلق عليه بالفراغ الثقافي) فهي المجال الحيوي الذي يتكلم عليه بيرك والذي كان يرى بأن لابد من ملئه ثقافيا. ونسي أن هناك مقولة مفادها أن الإناء لا يرشح إلا بما فيه!

إلا أن بيرك يعترف بأن هذا سيكون شيء صعب المنال. وبالمقابل فإن الشرطين الذين يضعاهما بيرك كخصائص يدخلان في البناء الثقافي واللذان هما: الحيوية والحركي[1] . لا يعتبراهما من المستحيلات التحقيق. بل يحتاجان من الراهن أن يبر هن عليهما، برهنة علمية بمعنى أننا يجب أن نستفيد – في نظره – من الأخطاء التي تُجاوزت مع القرنين الماضيين، وهما القرنان اللذان حاولت فيهما الوضعية والمثالية[2] أن تحتل بهما التفكير الإنساني المبرهن عليه علميا. وبيرك

[1] Jacques Berque, L'Islam au temps du monde -

[2] - وهي إشارة من بيرك إلى أن هذه المفاهيم الفلسفية فقدت مبررات وجودا كثقافة وهو الشيء الذي يتماشى وتحليلنا السابق.

يرى بأنه كان لهما إخفاق كبير في هذا المجال. إذ لم تستطع لا الوضعية- انطلاقا من أنها كانت قد تطرفت في الطرح- أن تساعد على التحليل الإبيستمولوجي لمشكلة المعرفة في العلوم الإنسانية. وأما المثالية فلقد كانت أيضا بشططها قد فتحت بابا للميتافيزيقا أكثر مما يستحق. وعليه فكأنها أعادت التفكير اللاهوتي والتفكير العلمي- على الأقل -إلى ما قبل روجيه بيكون وفرانسيس بيكون.

يقول بيرك في هذا المعنى: " وحتى تكون الثقافات أكثر حياة، أكثر حركية أكثر مما كانت عليه. فإنني لا أطلب سوى الدليل الإبيستيمولوجي .لنرى كم كانت العلوم الإنسانية والاجتماعية مـتأثرة بالوضع القيمي للموجود وللمتخيل وللمتكلم بالخبرة."[1]

إذن فإن شكل الثقافات في نظره كان خاضعا للأذقان لوضع العلوم الاجتماعية وهذه الأخيرة كانت خاضعة هي الأخرى للوضع القيمي: الوضع الذي تحكمت فيه القيم، وتحكمت فيه الأخلاق، كما تحكم فيه الأدب، وتحكم فيه إلى حد ما المجال العلمي. وبخلاصة واحدة نقول، في رأي بيرك فإن التداخل كان بينا، في ما بين ما هو أخلاقي وما هو أدبي وما هو علمي حتى بلغ أوسع معانيه.

[1] - Jacques Berque, L 'Islam au temps du monde P103

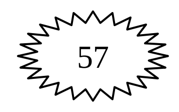
إذن هي ثلاث مقولات ثقافية "ويستطرد قائلا "ولا نرى كيف أن الوضعية الجافة والروحانية المبللة قد سيطرت على مفكري القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بصفة جيدة.[1] وهو اعتراف آخر من بيرك بالفشل الذي منيت به فلسفات القرن التاسع عشر والقرن العشرين. في صقل الذات الأوروبية صقلا ثقافيا يجعلها تؤسس لانتشار معالم الثقافة من فن وعلم وقيم.

من فن: لأن الفن الأوروبي سقط في متاعب "الأيادي القذرة"[2] ذاك الذي بطلها راح يبحث عن غثيانه بعد الحرب العالمية الثانية (أعني الفن الذي لطخته "الوجودية كمذهب إنساني" حاول أن ينقذ البشرية من ويلات الحرب بالاعتماد هو الآخر على "دفاعا عن المثقفين". باعتبار المثقفين الطليعة يحاولون أن يلعبوا الدور المنوط بهم من أجل إنقاذ البشرية ولكن هيهات!

ثم يحاول بيرك أن يعالج المسألة الثقافية التي كما قلنا- يريد أن يؤسس لها من خلال نقده للثقافة التي سادت وولت، من جهة. ومن جهة أخرى من خلال اعترافه بفشل المشروع الثقافي للذات الأوروبية كما قلنا أيضا- من زاوية لغوية بحته لأنه يعتبر أن اللغة مكون أساسي بل رئيس في الثقافة بل وفي كل ثقافة فيقول:"...إنني بصدد التكلم عن لغة هي بالتمام وليدة علوم اللغات

(1) -Ibid,P102

(2) - عنوان مسرحية للأديب ولفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر.



وتطبيقاتها، حيث تولدت ثورات الإعلام الآلي التي عينت بكل فخر الخلق الصناعي، واقترحت بل مارست تحويرا جذريا للإنسان نفسه. ولم يعدفي الاجتماع مصطلح الهوية أو الخصوصية مطروح للتفكير حوله"[1]

إن بيرك هنا يتعامل مع الواقع الذي أصبح مفروضا من التكنولوجيا الجديدة تلك التكنولوجية التي ذهبت إلى التأكيد على أن اللغة يمكنها أن ترتقي لتصبح لغة للذكاء الاصطناعي وهي اللغة التي أسس لها من الناحية الفلسفية كل من فيتجنشتاي1889-1954 وبرتراند راسل1872-1970 في اتجاه عرففي ما بعد باتجاه الفلسفة اللغوية. و(ملخص الفكرة هذه أن اللغة الطبيعية لم يعد لها مكان في اللغة العلمية والمقصود باللغة العلمية اللغة التي تستعمل الرموز في التعبير عن العبارات عن القضايا. وهي اللغة التي اصطلح على تسميتها باللغة الاصطناعية).

ومنه فإن بيرك يرى بأن الاستفادة من هذا اللون اللغوي أصبح من متطلبات العصر لأن هذا الأخير قد فرضه العصر نفسه. وذلك من أجل غرضين اثنين:

الأول أن التعبير باللغة الفصحى لم يعد يساير العصر وثانيه أن الاستعمال للغة الدارجة يسهل من مهمة التقارب بين الأفكار أكثر وهو تبرير

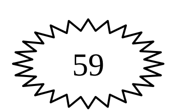
---

(1) - Jacques Berque, L'Islam au temps du monde P103,

في نظرنا من أجل تغليب سيادة العولمة الثقافية ليس أكثر. لأن مسألة اللغة العصرية الجديدة أكدت الدراسات العلمية اليوم أنه لا خيار للمجتمعات البشرية عن اللغة الطبيعية لأن ما اصطلح عليه باللغة الاصطناعية مشروع اعترضت سبيله صعوبات. حتى أن برتراند راسل قال أما عن نفسي فإني سوف استعين بالمصطلحات الفنية العلمية لتهذيب اللغة العادية. وأما فيتجنشتين فلقد عاد عن مشروع اللغة الاصطناعية لما صادفه هو الآخر من صعوبات برهن عليها النقد الموجه له، تارة وباعتراف منه بفشل المشروع تارة أخرى لا سيما مسألة أن اللغة تصوير دقيق للواقع. ومن هنا فإن استعمال اللغة غير اللغة الطبيعية لا يؤتي ثماره على المستوى الثقافي والذي هو مجموع العادات والتقاليد والفنون والعلوم. وبيرك يعلن موقفه المؤسس لثقافة العولمة – في نظرنا- فيقول و.... وهي المصطلحات- (يقصد مصطلحات الهوية والخصوصية) التي كان بالإمكان الحكم عليها بالبطلان قبل فقط عشرين سنة. وهي التي جلبت لصاحب هذا المؤلف (يقصد كتابه,L'Islam au temps du monde) جدل وعداوة. فمفاهيم (الهوية والخصوصية) تنموا على الفوارق أو الاختلافات حيث الصوتيات أو الدلالات لها استعمال معرف لدينا[1].

---

(1) - Ibid P103



وها هو رأيه الواضح كالنهار بخصوص هذه الفكرة أي فكرة عولمة الثقافة يقول" إن بناء اللغة والقيم المرتبطة بها، هذه التأثيرات اللغوية والتي تمتد شيئا فشيئا حتى ميادين العلوم الدقيقة دون أن نتكلم على العلوم الإنسانية وعلى العلوم الاجتماعية تشكل حينئذ الظاهرة الأخرى الأكثر قوة.....) أي ظاهرة انتشار ثقافة غياب مصطلحات الهوية والخصوصية.

ويقترح تعريفا بعد التساؤل عن ما هي الثقافة؟ فيقول بان الأنتروبولوجيين الأمريكيين قد نشروا كتابا جمعوا من خلاله التعريفات التي قدمت: العشرات أو المئات ولا وجود بعد لـ"ثورة ثقافية "وبدورنا حينئذ أن نقدم تعريفا واحدا...

ويضيف قائلا: "إن الثقافة حسبنا هي **حركية المجتمع التي يبحث من خلالها عن معاني وعن عبارة**"(). وهو بذلك يخالف التعريف الإتنولوجي الأنجلوسكسوني الذي مفاده أن(الثقافة = مستعملات + مؤسسات + إشارات).

هذا التعريف الذي يقدمه بيرك للثقافة هو حصيلة التأسيس أو الإنشاء الذي أقامه انطلاقا من نقده للمشروع الثقافي الذي فقد مبررات وجوده في الذات الأوروبية إلى إرساء القواعد الأولى لهذا النوع من الثقافة التي يتكلم عنها بيرك والتي- كما قلنا نحن عنها- بها يؤسس لثقافة العولمة التي بدأت في بسط سلطانها اليوم على عالم أفكار المفكرين والسياسيين منهم لا سيما في الغرب .والتي من خصائصها ما أسماه **بالحركية والحيوية** (أو الحياة والمرونة). تلك الحركية التي

تتوجه صوب غايات في نظره مثلى. وهي غايات جمع العالم على فكرة التفعيل الثقافي. بمعنى أن يصبح العالم بما يملك من ثروة تقنية وثروة فكرية (الخبرات التجريبية المادية)مؤهل لقيادة الثقافة العالمية. و نستنتج أنه بذلك يكون مجتمعا عصريا بهذا النوع من الثقافة.

يقول في هذا المعنى".. علينا أن نضبط الثقافي وندققه ونجعله منطقيا.... **إن حضارة ما هي ثقافة في الاعتبار الذي تكسر "اسمنتها المتحجر"**. وعليها أن تكون مؤسسة، من التفكير ،ومن اللغة..." [1]

وهاهو الآن يجسد فكرته التي راح يجهد نفسه في التعريف لها إنها التأسيس لفكرة العولمة الثقافية. وهو يرى عين الواقع على النحو التالي: لقد تكلمنا عن المجتمع باعتباره مجتمعا فعالا ومنفعلا من الثقافي. و إلا فإنه لا يوجد مجتمع واحد منا نحن وهو محيط بنا. بصراحة فإنه يوجد مجتمع المجموعة المدعوة: الإفريقية وبذلك فهي الإسلامية. وحيث تتباين باللغة لعربية، باللغة الصينية باللغة لفرنسية، الخ: ومنه فإنها بالأقل مجتمع المجموعة الموسعة. وهو يريد أن يقول بأنها خليط من اللغات.

وفي نظر بيرك العالم هو مجموعتين لا ثالثة لهما. ما سماه بالمجموعة الإفريقية الإسلامية بلغاتها المتباينة. ومجموعة مجتمع العالم، "غير أنه وبعيدا عن

[1] - Ibid, P104

المجموعة يتأكد مجتمع العالم والنظير له من مجتمعات صغيرة. والتي هي الأكثر تجسيدا بسبب أنها أقل امتدادا.إنها دوائر التقارب أين تتشابك.[1]

وبتبرير فلسفي يستند فيه على دعامات تعود إلى الفلسفة الاجتماعية، يقدم موقفه من التفاعل الحاصل بين المجتمعين السالفي الذكر. ما أطلق عليه مجتمع القلة وما أطلق عليه مجتمع الكثرة. ليستنتج أن هذا التفاعل هو فعال بما لشخص الكثرة أو القلة فيه (وهي لفتة منه إلى الواقع ولكن أي واقع ببساطة إنه واقع شعوب ما بعد الاستعمار، وشعوب الاستعمار وشتان بين الصورتين. ومنه فإن نظرة ابن خلدون كما يرى تكون غير معبرة في نظره لأنها يمكنها أن تصح في عصر ما بعد الموحدين).

يقول: "لقد ميز ابن خلدون بعد الإغريق إنسان القلة عن إنسان الكثرة، الشخص بسيط، العالم مركب قبل أن يصبح شخصا.ومن هنا فإن المجتمعات تتحرك في مكان ما فيما بين الاثنين، أقول أنه كي نصل إلى المسألة الدراماتيكية لعصرنا، عصر به الشخص والجماعات تتجاوز مكبلات هويتها.هذه الشخصية الحقة تلخص العلاقة بينه وبين كيانه، من جهة. وبينه وبين من هو على علاقة

---

[1] Ibid,P104 -

بهم، من جهة أخرى. وبينه وبين العالم في مجموعه"[1] وهو رأي كما قلنا يؤسس لثقافة العولمة.

بيرك والثقافة العربية: التشخيص والحل

1) في **العادات والتقاليد:**

ففي كتابه العرب من الأمس إلى الغد يقدم لنا بيرك وجه العرب وكيف أنهم دائما وإلى الأبد قوم مترهلون من طبائعهم فلقد كتب تحت عنوان البدوي الأبدي ليظهر أن هؤلاء القوم حالة بهم البداوة أين ما كانت مواقعهم وفي كل الأقطار لا سيما المشرقية منها. وهو يصور هذه الطبائع حتى يعتقد الظان أن الصورة الحقيقية للعرب هي كذلك وليست شيئا آخر يقول".....هذا هو الحال في لبنان والعراق ومصر خاصة حيث يسود تناسب دقيق بين وحي القرية وثقافة الأزهر. وقد بلغ من ذلك أن الجامعة المغرقة في القدم أصبحت تظهر نفسها موئلا للأدب الريفي. ومع ذلك أنا ألح على هذه المواضيع التي اكتسبت، فيئ عملية إنقاذ ، حقها بالتربع في التدريس الجامعي، وفي العمل الحكومي، في مصر اليوم. يكفيني أن طراز الإنسان الذي يتجلى، وربما هنا أكثر منه في أي مكان آخر، لصق السطح من الجبلة، وممتزجا كليا بالجهد المتواضع وبالمباهج الساذجة التي يمنحها العمل، هذا الطراز يبدي كلية لم تفث في عضدها حتى الآن، لا ثقافة

[1] - Ibid,P104

المدن، سواء حركتها نزعة المحافظة على تقاليد التقوى أو النزعة التجديدية الغربية، ولا قسوة الحياة الاقتصادية المتنامية ".[1]

ونحن نقول أن هذه السمة أي سمة البداوة ليس صفة لاصقة بالعرب وحدهم من دون الناس ففي رأينا أن البداوة تضرب كل الشعوب التي لم تمسسها الحضارة لأن الحضارة ثقافة وبما أن العرب هم في مرحة ما قبل الحضارة فإن هذه السمات متوفرة في بعضهم وهي المرحلة التي عايشها أيضا العلامة المسلم ابن خلدون في معالجته للعرب (أنظر المقدمة). ثم لأن البداوة تتأسس لدى الشعوب التي عمل فيها فعل الاستعمار ممارسة الموت البطيء عليها. أما أن تكون سمة طبيعية فإن لوي ماسينيون(1882-1982)[2] حقيقة أنه أكد على ذلك لكن هذا النوع من الدراسات أكد التاريخ بأنها من إنتاج المعامل الاستعماري أعني أنها دراسات أنشئت بغرض بث في نفسية هذه الشعوب وكيف أنها غير قابلة للتحضر. ومنه فنحن نقول أن حظ الشعوب في التحضر أو التبدي يخضع لمعامل عملية التثقيف لدى أي شعب من الشعوب ما إذا كان نشطا أم أنه يعيش السبات. وتحت عنوان طرا فات عربية وقوا سم مشتركة عالمية

[1] - جاك بيرك، العرب من الأمس إلى الغد، ترجمة علي سعد، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ، ص30.

[2] - لويس ماسينيون مستشرق فرنسي 1883-1962 ظل على رأي ميشال دوفوكوا بخصوص الثورة الجزائرية وقضية نفي سلطان المغرب محمد الخامس لتفاصيل أكثر أنظر:Microssoft,Encarta2004

ينتهي بيرك منها إلى استغلال بل واستعمال محي الدين صابر في المؤتمر الثالث للأدباء العرب1957 ليعب على قوله بأن به تناقضا عن القومية لأن برأي بيرك فإن هذا الطرح "مطلب متناقض"وإلى القارئ تعليق بيرك عن فكرة القومية يقول "فالقومية إذن هي جهد العرب لكي يتوافقوا مع الآخرين دون أن يتخلوا عن أماناتهم لذاتهم. ولا يهم أن لا يكون الحوار دائما مطروحا بوضوح، ولا موضوع الإحساس الجلي. وهذا المطلب المتناقض يعيدنا إلى قلب الواقع الذي يدوسه. فعبر المباشر وتناقضا ته وعبر النصيب من الحقيقة الذي توصلنا إليه هذه التناقضات، يكشف هذا المطلب كثيرا من الخصائص التي التمست فيها اقترابا أوليا من العرب، في مناظرة مزدوجة، بين الخاص المميز والعالمي، وبين التاريخي والمقدس.[1]

2) **في اللغة: أو في "مغامرات الكلمة"**

ينطلق بيرك في تحليلاته عن اللغة أو ما سماه بمغامرات الكلمة من مقدمة كبرى ضمنها أن اللغة العربية:"تظل وفية لتحديدها الذي يتضمن النزول (ويشير في الهامش إلى أن كلمة "التنزيل" (في المعاجم اللغوية) بمعنى هبوط الوحي). وهو يريد أن يقول بأن اللغة العربية الفصحى عليها هالة التقديس ليتساءل بعد ذلك "كيف سمت اللغة*الفصحى، الأمينة للقرآن الكريم، الذي يشكل

[1]- المصدر السابق نفسه ص64

نموذجها ... لأن تتحول من سبيل لهبوط الوحي والاتصال مع اللـه جل وعلاإلى أداة لتبادل الشؤون الدنيوية ووسيلة للثقافة، والأنباء والتعبير، وما هو المدى الذي نجحت فيه ببلوغ هذه الغاية..."[1] ثم يقدم اللغة العربية على أنها "ليست اللغة الأم لأي أحد، وذلك لما يتجلى فيها من تقسيم الذي يقرأ وهو يقرأ لغة القرآن والذي لا يقرأ ولكنه من الأم (وراح يختلق أن لفظة أمي بمعنى مأخوذة من الأم وفي هذه الحالة يتساوى الكل في أنهم من الأم كذاك الذي يقرأ وذاك الذي لا يقرأ وشهادته في الحالة الأولى "أن التعليم الابتدائي كان يزدهر في البلدان العربية قبل الاستعمار".ولكن صفة الأمي تجعل الكل يعود إلى العربية كما أسلفنا. ليتساءل بعد ذلك عن لماذا تعطى اللغة الكبرى التي ظلت مكتوفة في مستودعها الطفو لي والإلهي، رمزا اجتماعيا هائل الفعالية والعمق. والانحطاط المعنوي والتشتت السياسي، والتدهور الاقتصادي للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.

وأفتح قوسا عن تساؤلات بيرك هذه، لأقول أن اللغة العربية في رأيه كانت مسئولة عن ما لحق بالعالم الإسلامي من تدهور وانحطاط. وهذا التساؤل من بيرك منطقي لأنه انطلق من مقدمة كنا قد أشرنا إليها ألا وهي أن الفصحى منزلة من "التنزيل". فإذا استخدمنا هذه المقدمة في حقيقتها سنقول أن العربية كانت منذ أن

---

[1] - جاك بيرك العرب من الأمس إلى الغد، ص261.

وجد قوم اسمهم العرب فهي موجودة قبل مجيء الإسلام. وهي بهذا أو بذاك عرفت نماذج ممن عبر بها من أشعار المعلقات في الجاهلية مثلا، ومن آداب عرفت بالعربية قبل "التنزيل" ومنه فالفصحى أو غير الفصحى ليست بأب لأحدكم ولا بأم لأحدكم بل "من تكلم العربية فهو عربي".

ودليلنا الثاني أن العربية بقيت دائما وأبدا وعاءا تخدم الثقافات المتناثرةحتى في البلاد التي تُرسم جغرافيا بأنها البلاد العربية، ومنه فالفصحى وإن كان " الثقافي" وهو هنا القرآن الكريم قد أنزل "بلسان عربي مبين". فإن الثقافي الآخر أي الدين المسيحي له إبداعات من اللغة العربية)كما اعترف بيرك نفسه بذلك فقال: "والحق يقال إذ أن المسيحيين هم الذين يتخذون وجه الرواد"[1] ويزيد ليقول: "ولا شك أن هناك ترابطا زمنيا على الأقل، بين نمو بيروت كمدينة وكمركز تجاري، خاصة منذ شق برزخ السويس، ونموها كمركز تجاري ثقافي ولكن هذا الترابط لا يمكن تحليله وتفسيره بأي شيء واضح" [2] وهذا تأكيد منه على أن نمو بيروت وتطورها كمركز تجاري وثقافي في التاريخ المعاصر منذ 1890 كان بالعربية[3]. وكله كلام بل استشهادا يتناقض وأطروحة أن العربية من "التنزيل" ولكنها كانت

---

[1] - المصدر نفسه، ص263.

[2] - نفسه، ص264.

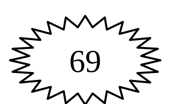
[3] - لأكثر تفاصيل أنظر رأي بيرك نفسه في: العرب من الأمس إلى الغد، في الرواد المسيحيين من الصفحة 264، 265، 266، 267، وكذا هامش الصفحة264

مسؤولة عن الانحطاط المعنوي والتشتت السياسي والتدهور الاقتصادي. كما أن الفعل الثقافي يهودي هو الآخر مدين لها، ويجري الحال على المجوسي وعلى الناري وعلى الوثني وعلى أقوام صنعوا باللسان العربي أجمل أشعار الدنيا. ومنه فإن التناقض يكتنف تساؤلات بيرك. إذن ليست اللغة إلا وعاء (كأس) فيها يصب اللبن أو الخمر أو العسل أو غير ذلك، ولا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون مسؤولة عن تطور أو تدهور قوم لأننا نعلم أن اللغة هي التعبير عن منتجات الحضارة وكلما كان المستوى الحضاري راق كلما كانت لغته راقية والعكس صحيح: وعندما نكون منصفين للحضارة العربية الإسلامية في صورتها الحالية نقول أن القوم فيها يعيشون مستواها الحضاري: والذي هو في حقيقة الأمر مستوى يقف وسطا مابين التفسخ الحضاري ومستوى الإمكان الحضاري. أو بتعبير أدق مستوى الذي خرج من الحضارة ومستوى الذي يلملم للإقلاع الحضاري من جهة ثانية. ومنه فإن الفعل الثقافي يخضع في تناسبه ألطردي لهذه المعادلة. ومن ثمة فإن وعاء هذا الفعل (أي اللغة) هو الآخر يخضع لنفس التناسب في المعادلة.

ويخرج بيرك من مغامرته للغة برأي يكاد يكون رأيه المتميز وذلك من إيراده لمفهوم أو مصطلح من الكلمة إلى اللغة وفحوى رأيه هذا، أن استعمال اللغة الثالثة على رأي توفيق الحكيم أفيد لا سيما في المسرح. ورأي أيضا كل من فكرة تعميم اللغة التي جاء بها أنيس فريحة تفيد في المسرح ومحاولة عبد العزيز الأهواني وهو يقلل

من أهمية الانتقادات التي وجهت لهذه الأفكار ولغيرها من الأفكار التي كانت تتناول ما يمكننا نحن أن نطلق عليه لغة غير لغة الكلمة.هذه الأخيرة التي يقول عنها بيرك "أما الكلمة بمراجعها فوق الحسية وبقيمها المشاعة بين أفراد الجماعة بأوسع معانيها، وبمعينها الذي لا ينضب من المفردات وبمرونتها التعبيرية، فقد كانت على العكس قادرة على الاضطلاع بهذه المهام كاملة. وقد سبق لمنطق علم النحو الصارم، المتشدد، الذي ترتكز عليه والذي يتميز بتشبعه بالعقلانية أن وضعها في حالة استعداد لنضالات العصر الحديث، والدنيا الجديدة.... فكان أن أضحت اللغة العربية مهيأة لمواجهة كل الظروف: تنافس الثقافة العالمية، لطاقات المساومة السياسية أو الحركة الملهبة للحماسة في المعارضة السياسية. لقد أصبحت اللغة العربية الوجدان الخطابي للشرق"[(1)]. فالكلمة هنا متعالية من الميتافيزيقا ومنطق نحوها صارم ومتشدد ولم تكن لتتجرد من الطاقات الغنائية والنغمية وهي وكذا هي الملهبة للحماسة في المعارضة السياسية. من هذه الواقعية فإن بيرك يحاول أن يعري الكلمة ليكشف عن سوءاتها وهي التي عرض بعضها هنا ليخلص إلى رأيه فيها فيقول" ....**هذه العربية التي تسمى العربية الحديثة والتي أود تسميتها العربية الوسطى" أي وسيطة بين الشعوب، ووسيطة بين**

(1) - المصدر نفسه، ص280



الأدب والحياة. وهذه الوساطة تتضمن خطر فشلها، وهذه لقدرة تتطلب ضريبتها..."[1]

بيرك و الفنون:

وكتب بيرك ليرى هذه المرة أن الفن الشعبي من موجبات الحياة في البلاد العربية لا سيما وأنه يتم باللغة العامية الدارجة. في نظره لا بد من إعادة الاعتبار له. ومن هنا فإن هذا النوع من الفنون لا سيما الفلكلور منه لم يتعرض لهجمات المدينة لأنه يتمركز بل يأخذ طابع الثقافة السفلى L'Infraculture أو الثقافة الأساسية في المناطق غير الساحلية.ومن هنا "فلا يمكن تصور الفلكلور دون تصور اللغة العامية مرتبطة به "[2].

وينتقد بيرك أولئك الذين كتبوا للمسرح باللغة الفصحى ليرى أن هؤلاء كانوا أقرب منهم للأدب إلى اللغة، التي هي ملك الطبقات الشعبية ويبدي وجهة نظره فيه بعد أن يتعرض للذين أسهموا بالمسرحيات العامية في التنوير وهو يقول عنهم "وفي نظرنا، لا تنحصر الأهمية التاريخية للمعارك التي تثيرها آثار توفيق الحكيم، ككل الآثار الكبيرة، في هذه النزاعات بين الأجيال والمدارس المتنافسة. ففي ملحق لمسرحية عنوانها "الصفقة"هو يعرض نظريته حول لغة المسرح. وفي هذا البحث

[1] - نفسه، ص271

[2] - المصدر نفسه 271

ما هو كثير الأهمية بالنسبة لدراستنا. إذ أن المسرح العربي قد استوقفنا خاصة بصفته انتصارا (خارجا عن الدين) على الكلمة"[1] . وفي رأينا فإن هذا (الانتصار الخارج عن الدين) للمسرح العربي يعود لتلازم هذا الفن بالحركات المدرسية الحديثة من جهة، ومن جهة أخرى يعود إلى الوضع الذي عانته الثقافة العربية على أيام محنتها مع التحرر السياسي والاجتماعي ولم لا حتى الثقافي.

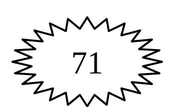
وفي الفن العربي ونفوره من التصوير كتب جاك بيرك ".....يبدوا الإسلام انعداما للوجه المرسوم، وبحيرة من ضياء أسود: أو من اللون الأخضر إذ أن الأخضر هو لون "الخضر"، هذا النبي المتوسط، الذي وصفه لوي ماسينيون "بالخضرة "والذي يطوف عبر التاريخ، ولكن دون التاريخ بين الإنسان والإله، الفن الغربي ينافس الواقع. لقد أصبح نصف إلهي، وهو ربما يتحدر من المحاولة أو للاشتفاء أو لإرواء الغليل "Assouvissance كما يريد مالرو Malraux، ولكنه يتوق أيضا إلى إعادة صنع العالم. وهذا الصنع الجديد للعالم، وخاصة للكائنات، هو ما لا يريده الإسلام."[2]

إن جاك بيرك وهو بصدد طرحه لفكرة الفن هنا - وهو أحد الدعائم التي تقوم عليها أي ثقافة - ينظر لإلى ما سماه بفن التصوير من العين

---

[1] - المصدر نفسه، ص277.

[2] - المصدر نفسه، ص297



الأوروبية، هذه العين التي تُسقِط ما تشبعت به من ثقافتها الخاصة على ثقافة غيرها، وبالضبط هنا في مجال الفن. هذا أولا.

وثانيا أن ربط فن التصوير بصورة لون ما، وليكن هذه المرة اللون الأخضر، لا نعتقد أن أي عاقل يربط اللون بالمسميات. فما بالك إذا كان هذا المسمى نبيا كما قال عن "الخضر" لأننا نعتقد أن المسميات هي أيضا مشتقات، ولكن أسماء الأعلام لا يمكنها أن تسحب على لون ما، قيل أنه طبع فنا ما، وهو هنا اللون الأخضر. لأن اللون نعتقد جازمين أنه خلق بالطبيعة قبل خلق "الخضر". ومن هنا فلا يمكن سحب المخلوق بالمحل الثاني على المخلوق بالمحل الأول.

وثالثا أن فن التصوير في الإسلام فن ممقوت من جانب واحد هذا الجانب هو الجانب الذي يُذكِّر بالأصنام[1] في وقت جُعل فيه التذكُّر لـلـه وحده. أما بقية الحالات فهي التي دونتها الحضارة الإسلامية كما ذكر بيرك نفسه فقال "ومع ذلك فإننا نعثر على طول التاريخ الفني في الإسلام على الكثير من التشخيصات التي

[1] - أورد العلامة الراغب الاصفهاني في معجم مفردات ألفاظ القرآن تحقيق نديم مرعشلي دار الكتاب العربي 1972في ص 295 ما يلي:(الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الـلـه تعالى ، وجمعه أصنام . قال الـلـه تعالى ﴿أتتخذ أصناما آلهة * لأكيدن أصنامكم ﴾ قال بعض الحكماء: كل ما عبد من دون الـلـه بل كل ما يشغل عن الـلـه تعالى يقال له صنم وعلى هذا الوجه قال إبراهيم صلوات الـلـه عليه :﴿اجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ فمعلوم أن إبراهيم مع تحققه بمعرفة الـلـه تعالى وإطلاعه على حكمته لم يكن ممن يخاف أن يعود إلى عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها فكأنه قال اجنبني عن الاشتغال بما يصرفني عنك .)انتهى

تمثل بها كائنات حية "[1] وذكر الكثير منها وجدت بمتحف بغداد، وفي الكوفة، وفي القاهرة، وفي الخرطوم....لكن بيرك يرى في الأمثلة التي سردها شيء قليل فقال" وكأنه(أي فن التصوير) مضيق عليه عند الزوايا: "إنه يبدوا تصويرا نابعا من ضمير غير مطمئن."[2] لكن الضمير الغير المطمئن الذي برز لبيرك هو الذي أحس به في وقت غدا فيه الفن حبيس أو سجين القوى الاستعمارية الغربية التي حدثانا التاريخ أنها لا تبقي ولا تذر مع الأسف في كل الميادين ولا سيما تلك التي كانت تمس من قريب أو من بعيد ثقافة القوم.

وفي كتابه **القلق العربي في الأزمنة المعاصرة** يخلص إلى أن هذا القلق وهذه الحيرة للعربي سوف تنتهي بأن لا يكترث هذا العربي لما مزق أوصاله من ماضيه السحيق ومن ما أوجده على وجه البسيطة (فشأنه شأن ذاك الذي راح يبحث عن معناه في هذا الوجود الذي صوره أيضا صاحب كتاب اللامنتمي كولون ويلسون) حتى أن هذا العربي الممزق الأوصال لا يستطيع أن يعالج أموره التي هي على صلة بماضيه من جهة ومن جهة أخرى فهو لا يمكنه أن يسير حتى

---

[1] - جاك بيرك العرب من الأمس إلى الغد، ص298.

[2] - نفسه ص 299

واقعه الشخصي بل الفردي حتى " الكائن العربي المؤقت لا يلتف من الآن فصاعدا على نفسه في استرداد غير محدد للماضي" كالثعبان الذي يعض ذيله"[1].

نلاحظ من تصوير جاك بيرك أن هذا العربي الذي يتكلم عليه هوفي أشنع صورة، إنها الصورة التي هي على النحو التالي:

أولا وحسب النص فإن هذا العربي هو دنيوي (لسنا ندري ما إذا يخلفه الآخر أم لا – مع العلم أن النص هذا مكتوب في سنة 1958- هذا أولا.

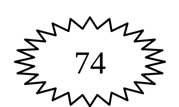
وثانيا هي صورة عن هذا العربي الذي في رأيه هو غير قادرحتى على أن يلتف على نفسه.

وثالثا إنه الكائن الذي لا يمثل– في نظر جاك بيرك- سوى مصدر الكينونة. (نفهم هذا من تعبيره على العربي بالكائن).

ورابعا إنه يشبه في ما يشبه -دائما حسب بيرك- الثعبان الذي عض ذيله بمعنى أن العربي لم يعد أي شيء يربطه بماضيه فهو العربي الذي فقد– حسب تصويره- كل أواصر وكل روابط بماضيه. ومنه فهو العربي الذي ربما- في رأيه- بلا تاريخ، بل نقول بلا ماضي.

---

[1] - Jacques Berque, L'inquiétude Arabe des temps modernes. Extrait de la revue des etudes islamique, 1958, librairie orientaliste Paule Gauthier. Paris1958.P106)



إن هذه الصورة من بيرك تعبر عن نفسية رسمت للعربي صورة في ظروف تاريخية استثنائية. إنها صورة ملتقطة عن فترة الاحتلال عن فترة الاستعمار عن فترة الثورة الجزائرية في أوج جبروت عدوها. وهي الصورة التي يمكننا أن نلتمس من مثلها في المتاهة التي أقامه عالم النفس "ثورندايك" لفئرانه ليستخلص منها قوانين التعلم والفرق هنا هو استخلاص النتائج! فبالنسبة لبيرك تجري الرياح بما لا تشتهي السفن..

ويضيف بيرك صورة أخرى فيقول: "أن النظرة التي نعطيها له(أي للعربي) هي تاريخية لقد تربع على أطول الظلمات، مابين ناهشات من الكلاسيكية وصرا مات الحاضر...[1]

وبصدد حديثه عن **المثقف العربي** فإنه يصوره في تلك الصورة التي يعتبرها معبرة عن الراهن. وهي الصورة التي لا يرى منها المثقف العربي، إلا فاقدا لهويته. لأنه في رأيه لا يمكنه أن يجسد واقعه من خلال أنه فرد نمى قدراته على مفاهيم الحداثة. وعمل في الآن نفسه مع محيط لم يكن في شيء ليساعده على تطوير وسائله العلمية والثقافية. لا سيما منها الوسائل التي مكنته من ممارسة عمله كمتعلم، من جهة ووسائله التي قطعت بينه وبين ماضيه العتيق. إنه محطم ومهشم الأوصال. كأنه ذاك المثقف الذي تكلم عليه أحد الكتاب فقال بأنه يمثل

[1] -Ibid,P106

صورة الرجل المتعلم صاحب الأرجل الفخارية الذي رجلاه في الأرض ورأسه في السماء. بمعنى أنه المثقف الذي تقطعت به الأسباب بين ماضيه السحيق وحاضره المترمل فيه. فيقول "إن العربي ولا سيما منه المثقف الذي اسند ت له المهمة يتساءل ويتساءل عن هويته ذاتها في اللحظة التي يختلف فيها عن الآخرين.إنه يعاكس، فلم يقدر على المخالفة إبان كل فترة العتق أو التحرر الوطني....وأن قوته وكل قوته الممزقة يصرفها في الصياح[1]

ومن مؤيدي جاك بيرك في رأيه في الثقافة العربية ألجيردا جوليان غريماس Algirdas Julien Greimas فلقد كتب تحت عنوان لقاءات Rencontres:"ماهو الحدث في المضمون الثقافي العربي؟ إنه غير موجود إذا لم يكن متكلم، غير أنه يمكن له في أي لحظة أن يطفو مع الكلمات...[2]

هل بإمكاننا أن نحول الكلام الفاعل في الحين إلى خطاب مطول؟ إنه مناقشة حول السائر في طريق التنمية والفكر التقني: فكيف نسير دون مخاطر هذا الأخير، العامل على المنوال اللوغاريتمي المتشكل بكيفية ما، انطلاقامن النتائج المتحصل عليها مع تفكير اتفاقي، ومفتوح على المستقبل، حيث الحرية تخشى الطريق على امتداد الأوامر المعللة والمهيأة رافضة التعليلات الآلية؟ و ما

---

(1) - Ibid,P107

(2) -Algirdas Julien Greimas Rencontres, In, Rivages et déserts, Sindbad Paris18,1988, -P267.

معنى قول النهضة مقابل للإسلام الأبدي؟ إنه التماس لطرح مركب مستحيل: من هنا يبدوا أن تفكير جاك بيرك ينطلق بصفة دائمة من النظري ليجد تطبيقه اليومي، في البحث الغير القابل للملل في التخصص العميق للثقافة العربية.

إن التساؤل حول الفعل....يطرح حينئذ مشكل ما بعد الثقافي، إنه الخاص بعادات ثقافة مقارنة بسماتها الحقيقية. الثقافة التي بإمكانها النظر في سمة" الشيء وضده" ولا تطرحه ليس وحسب على وضعيتنا وعلى سمتها الطبيعية هذا هو الذي يخصصه جيدا أكثر بالنسبة للثقافة المتوسطية وسماتها المميزة، تظاهرات شاهدة غائبة للشمولية الفضاء الفسيح أليس اللـه الذي لأنه واحد هو وحده القادر على أن يتولى أمر التلاقي بين المتناقضات؟

نقطة انطلاق لتدبر آخر قول مأثور لبيرك "إله الإسلام يبرهن هو نفسهعلى وجوده ".

لنقول أن كل فيلسوف يبحث عن اختتام أعماله بعمل جمالي، ألا يمكن أن يكون غير جاك بيرك الذي أراد إعادة بناء الثقافة العربية في أصولها المثالية،في جماليتها النموذجية الأصلية؟[1]

وأهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث ما يلي:

---

(1) -Ibid, P,268

.

– أن بيرك جاء بمفهوم يمكن القول أنه مغاير للمفاهيم المتداولة للثقافة، هذا المفهوم الذي رآه من الممكن أن يكون بديلا للثقافة كمفهوم كلاسيكي.

– أن مفهوم الثقافة هو ذاك المستوحى مما يمليه العصر بكل وسائله الإعلامية والتقنية وحتى المادية.

– أن الثقافة طرحت إشكالا كبيرا في البلد العربية هذا الإشكال هو أن هذه البلاد عرفت ما يمكننا أن نطلق عليه نحن بإيجاد مجتمع "اللاّثقافة" هذا الوضع خلف قلقا في الثقافة العربية، أتراها تهيم في العصرنة أم أنها تتحجر على كلاسيكيتها؟

– رأى بيرك أنه لا من اعتماد المفهوم الراهن للثقافة ولا بد من الابتعادعن المفاهيم الكلاسيكية التي – حسبه- عانت منها البلاد العربية.

– لقد أوجد بيرك عدة حلولا لهذه الوضعية. فبخصوص العادات والتقاليد يدعوا بيرك إلى ضرورة التخلص منها بالشكل الذي هي عليه ولا بد من الاندماج في الثقافة المتوسطية. وبخصوص الفنون الشعبية يرى بأنه لا بد من العناية بها لا سيما أنها تراث معبر عنه باللغة العامية.

– يشخص بيرك عورات الفن التصويري في الثقافة العربية ليوجد أن هناك تعارضا بين ما يمليه النظري في هذه المسألة (حسب نظرته فن التصوير لا تبيحه هذه الثقافة العربية) وبن الواقع الحضاري للحضارة العربية الإسلامية الذي عرف بعضا من الفنون التصويرية. وفي رأيه للخروج من هذا التعارض.

- لا بد من حسم المسألة بإتباع الثقافة المتوسطية في هذه المسألة.

- وعن مسألة اللغة العربية يدعوا بيرك إلى اعتماد اللغة المتوسطة والتي هي لغة بين العامية وبين لغة الكلمة. وفي نظره فإن التوسط يطبع دائما هذه المسائل. فلماذا لا نكون وسطيين في اعتماد هذا النوع من اللغة العربية والابتعاد قدر الإمكان عن اللغة الفصحى؟ وهي نظرة برهن التاريخ على صدقها أو كذبها.

الفصل الرابع

في العلاقات الثقافية بين الدولة والمجتمع

العلاقات الثقافية بين الدولة والمجتمع:

يهدف هذا البحث إلى إبراز العلاقات الثقافية، بما لها من أهمية بالغة في حياة الأمم، وبما لها من الأهمية، لا سيما منها على الخصوص في العالم الإسلامي. فإذا كانت العلاقات السياسية هي التي تساهم في تمتين عرى الصداقة بين الأمم وبين الشعوب، وإذا كانت العلاقات الاقتصادية تقوم على تبادل للمنافع، فإن العلاقات الثقافية تدير هذا الكل بما تحمله من مادة ثقافية. أعني أنه لا يستقيم أي من هذه العلاقات إلا مما يتوقف على نوع العلاقات الثقافية التي تربط:

أولا بين بأفراد المجتمع الواحد بعضهم ببعض.

وثانيا تربط هذا المجتمع أو هذه الدولة بالمجتمع أو بالدولة التي تقام معها العلاقات. أو ليست العلاقات الثقافية من غاياتها العلاقات السياسية والاقتصادية؟ و...ومن هنا بات لزاما النظر في مدى نمو هذه العلاقات من الميلاد إلى الفتوة والقوة. لأنه إذا كانت العلاقات الثقافية هي الروح التي يتجلى من خلالها عالم السياسة وعالم المال والاقتصاد، وإذا كان كل من هذه العوالم يدين لعرى الروابط

الاجتماعية التي تحمل المادة الثقافية فكيف يبدأ ميلاد ثقافة مجتمع وكيف يتطور إلى أن يصبح علاقات متميزة؟

تلك هي الإشكالية التي نحاول الإجابة عليها في بحثنا هذا، ومن أجل الكشف عن الجوهر الذي يميز العلاقات الثقافية سوف نتبع في منهجيتنا الخطوات التالية:

- في مفهوم العلاقات الثقافية.

(المميزات والخصائص)

- **في ميلاد العلاقات الثقافية.**
- **مراحل تطور العلاقات الثقافية.**
- **غايات العلاقات الثقافية.**

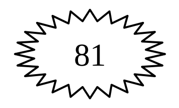
إننا سوف نهتدي إلى الكشف عن "المادة الرمادية" لهذه الفكرة، بالاعتماد على جملة من المصادر ومن المراجع نراها تفي بغرض البحث.

كما أننا سوف نستعين من حين لآخر بنتائج بعض العلوم وعلى الخصوص منها علم الاجتماع الثقافي.

وللاهتداء إلى غايتنا من البحث سوف نستخدم الأجرومية المنطقية في التحليل مرشدة لنا دون أن نكون عبيدا لها: أعني أننا سوف نحاول بالقدر الكافي الالتزام بالموضوعية في طرح الأفكار وتحليلها إلى أبسط قضية فيها.

<u>أولا في مفهوم العلاقات الثقافية</u>:

يقصد بالعلاقات الثقافية مجموع الروابط التي تربط مجتمع ما لتميزه عن مجتمع آخر(والرابطة هي منظمة تتألف من مخلوقات اجتماعية أو طائفة من المخلوقات الاجتماعية منظمة بهذه الصورة) للسعي وراء هدف مشترك أو أهداف



مشتركة..."[1]. هذا التميز آت من كون أن هذا المجتمع أو ذك ينتج مادته الثقافية الخاصة به. وهذا الأمر سوف يحيلنا إلى تذليل مفهوم كلمة ثقافة.

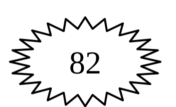
الحقيقة لا ينظر إلى الثقافة إلا من خلال النظرة الفلسفية التي تنير درب مجتمع ما وبالأحرى لا ينظر إليها إلا من خلال الرؤى الفلسفية التي تميز شعب أو مجتمع عن آخر ومن هنا فيمكننا القول أن الثقافة كانت دوما منقسمة إلى مدارس حددت المسار العام الذي يسر فيه مجتمع ما. ومن هنا وجدنا الكثير من المدارس تتنافس في اقتسام هذا المفهوم ومن هذه الأخيرة يوجد على الأقل المدرسة الاجتماعية والمدرسة الفردانية اللذان يتنازعان الصدارة في من هو مؤهل لإنتاج أدواته الثقافية على الأقل[2]. فلو نظر للمسألة من الناحية الجغرافية وجدنا اليوم الألوان التالية اللون الأزرق الذي يميز ثقافة الفردانية واللون الأحمر الممزوج بالأزرق وهذا الأخير يمثل المفهوم الاجتماعي للثقافة في زمن العولمة. وهناك لون آخر يمكننا أن نعطيه اللون الأبيض الشاحب أو اللون الأبيض الرمادي[3]. وهذه الألوان في الحقيقة تمثل أهم المدارس التي تتربع اليوم على عرش الثقافة فماذا عن الثقافة في الجغرافية التي اصطلحنا على أن لها اللون الأزرق؟

---

[1] - ماكيفر، ر. م. الجماعة دراسة في علم الاجتماع ، ترجمة محمد عي أبو ريدة ولويس اسكندر، دار الفكر العربي،1868.ص47.

[2] - مالك بن نبي مشكلة الثقافة، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 197ص29

[3] - نفسه ص30



إن هذا اللون الأزرق والذي يمثل جملة المفاهيم التي بنت عليه الاتجاهات الفردانية[1] نفسها ثقافيا: فهي تارة تتحقق فيه الفلسفة البرغماتية[2] كما هي عليه اليوم في الغرب. حتى أننا لا حظنا كيف أن الغرب وهنا أقصد أمريكا تحاول أن تبني لتاريخها صرحا مثلته أفلام رعاة البقر، تلك الأفلام التي تعكس الصورة الحقيقة للرجل الأبيض الذي ما انفك يشن البطولات تلو البطولات على غيره من البشر من أجل تحقيق برغماتية دائما ممثلة في الاستيلاء على كنوز ذهب الغرب الأمريكي.[3] وهي الذات التي- مع الأسف- التي تحاول دائما أن تصنع لنفسها التاريخ المجيد في العصر الحاضر، على الأقل في مسألة احتلال العراق[4] من أجل الفوز بالذهب الأسود الذي يتربع عليه هذا البلد. فلقد لا حظنا كيف أن العراق كان دوما هدفا للسياسة الأمريكية طوال التاريخ المعاصر، وفقط كان ينتظر المبررات التي تتيح له ذالك وكانت له هذه الأخيرة. بدخول صدام حسين ألأراضي الكويتية في جانفي عام 1990 وهو المبرر الأول. وثانيا افتعال مسألة امتلاك هذا الأخير لأسلحة الدمار الشامل وكان له ذلك. وثالثا افتعال نرجسية التفوق الدبلوماسي لما أرغم الأمم المتحدة على الخنوع لأوامر السلطة الأمريكية آنذاك[5].

---

[1] - يؤسس "الأنا " الديكارتي للفر دانية المعاصرة من الناحية الفلسفية أما اقتصاديا فلقد عرف هذا المذهب مع فكرة آدم سميث (دعه يعمل دعه يمر التي أماطت اللثام على الاقتصاد الرأسمالي كمقابل للاقتصاد الاشتراكي.

[2] - البرغماتية فلسفة قائمة على فكرة جلب المنفعة للفرد وهي امتداد طبيعي للفر دانية ، نما ونشأ هذا المذهب أي البرغماتية في الفلسفة الأمريكية المعاصرة.

[3] - أنظر فيلم ويسترينwestern filmوالتي تعني فيلم عن الغرب الأمريكي.

[4] - يؤكد أحد الأمريكيين وهو كينيث في كتابه حرب العراق war of Iraq أن الغرض من احتلال العراق هو الفوز بالبترول بترول البلد من طرف سماسرة الساسة الاقتصادية لا سيما منهم الشركات الأمريكية كشركة ديك شيني وشركات بوش و...

[5] - معروف أن مجلس الأمن في مسألة احتلال العراق لم تنل منه أمريكا الضوء الأخضر بسبب معارضة كل من روسيا والصين وفرنسا. وينتهي لأول مرة في تاريخه بالخروج عن" قاعدته الذهبية" (الفيتو).

والمهم في كل هذا التحليل أن الثقافة ثقافة الفردانية تمكن السيد "بوش والكر" من تطبيقها على أرض الواقع عاملا بالتعاليم التي قدمها له دعاة عقدة التفوق[1].

وهذا الشكل من الثقافة كما لا حظنا أصبح من الثقافة اللصيقة بالفرد الأمريكي. ومن هنا لا غرو إن قلنا أن الفرد في هذا المجتمع يخضع للمجموع والمجموع هنا هو الفرد، بما ينتجه هذه الأخير من مادة ثقافية. ولعل أهم دليل في هذا الشأن نسبة رصد الأصوات المعبرة عن انه لابد من الخروج من العراق مع نسبة القائلين بالبقاء فيه[2]. فلو عالجنا النسبتين في هذا المجتمع لوجدنا القائلين بالبقاء فيه أكثر رغم أن القوانين والأعراف والمواثيق الدولية لا تبيح بل لا تسمح باحتلال بلد لبد آخر، لا سيما إذا كان هذا الأخير يتمتع بالسيادة. ومن هنا بات لزاما أن نعرج على مسألة اختلاق كل مرة مبررات ثقافية للبقاء في أرض الرافدين كان أخرها محاربة -هذه المرة- تنظيم القاعدة في العراق. وحسبنا أن نتوقف بالتحليل عند حدود ضبط المفهوم.

ولنتفحص اللون الثقافي الثاني أي اللون الأحمر الممزوج بالأزرق:

الحقيقة أن هذا النوع من الثقافة فقد مبررات وجودها بسبب التوجه الجديد الذي رسمته سياسة الغلاسنوست[3] أي الشفافية ومن هنا أمكن القول

---

[1] - يأتي في مقدمة دعاة عقدة التفوق وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد وديك شيني و...

[2] - أقيمت عدة مراصد لسبر الآراء وكانت ولا زالت إلى يومنا هذا تكون فيها نسبة التفوق من الأمريكيين المعبرين بنعم للاحتلال أكثر من غيرهم وإذا ما طبقنا قاعدة بوش من ليس معي فهو ضدي فإن الانتخابات قدمت الفوز للاحتلال بنسبة عالية لما انتخب رجل الاحتلال للعراق مرتين

[3] - الغلاسنوست المصطلح الذي تقدم به رئس الإتحاد السوفياتي ميخائيل غورباشتوف والذي كان له تأثير كبير في السياسة الداخلية للإتحاد وفي السياسة الخارجية ومن آثاره سقوط جدار برلين سنة 1989 .

أن هذه القافة بدت شاحبة أكثر من أي وقت مضى لسبب أن الفرد الذي هو بالأصل للمجموع، والمجموع هذا للفرد. حسب أهم حكماء هذه الثقافة. فلم يعد الإنتاج الثقافي إلا ما تمليه التطورات الاقتصادية والتطورات العلمية والصناعية. أما عن الثقافة كثقافة أنتجتها قرون روسيا القيصرية أو حتى روسا الستالينية ولا حتى روسيا الغورباشوفية لم تعد قادرة على الإنتاج الثقافي إطلاقا. مما يعنى أن سرطان فقدان المبررات الثقافية، لم يعد ليطال هذه المبررات وحسب. بل أصبح يطال المبررات العلمية والاقتصادية. وبقيت روسيا اليوم ممثلة للثقافة الشيوعية، وممثلة للنظرة الاجتماعية. لكن هذه الأخيرة تربعت على بيت لا هي من روسيا القيصرية، ولا هي من روسيا الستالينية ولا حتى من روسيا الغرباشوفية . ومن هنا أمكن القول أن الثقافة الاجتماعية[1] باتت في بلد كروسيا مهددة بالانهيار، لما أكسبها هذا الانهيار من تدهور ثقافي. ومن هنا أمكن القول أن روسيا تعيش اليوم الفراغ الثقافي الرهيب. وأهم دليل في هذا هو بروز جماعات القتل الجماعي في مدارس الإعدادية[2] . وكذا بروز القتل الجماعي في أماكن مقدسة مثل المدارس كما حدث لمدرسة التعليم في ناغزي.

وأما الثقافة التي تلون باللون الأبيض الرمادي فهي تعاني هي الأخرى من تركيز جد عويص تركيز على ما يمكن أن يجنبها الخروج من ورطة المجتمع الخارج من الحضارة. ومن هنا كان لا بد من الوقوف على شكل الثقافة التي يتمتع بها هذا المجتمع أعني المجتمع الإسلامي، هذا الأخير الذي لم تنفعه صيحات ابن باديس ولا نداءات جمال الدين الأفغاني ولا تلميذه محمد عبده ولا ولا ..... من

(1) - أنظر: حنا آرندت ، الثقافة بين الماضي والحاضر

(2) تتكرر ظاهرة القتل الجماعي في المدارس الروسية وكان من أبشعا جرما القتل الذي حصل لمدرسة

أجل النهوض ولقد كان عرف بالمجتمع الذي هو على إرهاصات النهوض الحضاري لكن هذه الإرهاصات طال أمدها، وبالتالي طال أمد النهوض فيها.

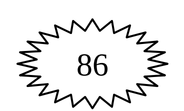
والحقيقة أن المشكلة الثقافية في هذا العالم أعني العالم الإسلامي، لم نعمل على حلها وإنما أرجأناها وأرجأناها عدة مرات ربما بسبب تعقدها: فهي ثقافة -على الأقل في الواقع- تجمع في كثير من الحالات بين المتناقضات فهي ثقافة تجمع بين الميني جيب والنقاب ثقافة تجمع بين العباءة والبذلة ثقافة تجمع العباءة والكرافات والطربوش[1]... هذا على الأقل في مشكلة الزي . وهي ثقافة تجمع بين المتصوفة والزنادقة ثقافة تجمع بين الإرهابين: إرهاب السلطة وإرهاب الشعب. ثقافة تجمع بين البرجوازية والطبقة الكادحة التي خلفها التاريخ المعاصر لبعض دولها وتاريخ الباشاوات على الأقل . ثقافة تجمع بين الرجل المتحضر والرجل الراكد. ثقافة تجمع بن هذا الكل و-التي هي متغيرات- وذاك الأصل وهو من التاريخ الطبيعي للمجتمع، وهو من الجواهر. تلك الجواهر، التي مكنت رواد الأمة من التربع على عرش السيادة العالمية في أقل من 50 سنة على أيام الفاتحين الأوائل وعلى أيام العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

<u>في ميلاد العلاقات الثقافية</u>

في الحقيقة لما نتكلم على الميلاد في الوقت الحاضر فإنما نريد أو نرغب في استعمال مصطلح آخر هو إعادة الميلاد[2] لأن الميلاد تشكل في الثقافة العربية الإسلامية مع قولة اقرأ ولن تكون اقرأ أخرى في زمن قيل فيه " ... لا نبي

[1] - يلاحظ هذا حتى على أعلى مستوياتها السياسية لما يقوم بعض رجالات السياسة بالمزج بين القندورة القميص و وربطة العنق (الكرافات) طبعا وإن قيل القميص لا يغير القسيس فإن اللباس له وقع على نفس صاحبه ومن ثمة على أفكار صاحبه.

[2] - إعادة الميلادrenaissanceفي اللغة الأجنبية استعملت مع النهضة الأوروبية .



بعدي[1] ". ومن هنا بات لزاما أن نتعرض للمصطلح الذي آثرنا استعماله ألا وهو إعادة الميلاد أو النهضة. الحقيقة لما نتفحص حادثين مهمين في محور الزمن لثقافة القوم نجد أنفسنا أمام حادثة محاكم التفتيش وهي الحادثة التي سوف نتوقف عندها طويلا. وحادثة كتاب الأدب الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر. فيا ترى لماذا انتقيت الحادثة الأولى.

إننا حينما انتقينا هذه الحادثة فلأهميتها التاريخية أولا وثانيا لما أفرزته من نتائج على الصعيد النفسي والاجتماعي وحتى السياسي. قبل أن أطرق تحليلا مفصلا لهذه المسألة وددت أن أعرج على مسألة أخرى. يجمع الباحثون في تشخيص السبب الرئيس لمسألة الإرباك الذي حدث للذات المسلمة وأنه بدأ مع واقعة صفين سنة 37 هـ[2] حيث بات تفريقا ضروريا بين ما هو سياسي وما هو ديني بين من رفعوا المصاحف على الرماح من أنصار معاوية وبينمن ثبتوا عند هذه الأريحية بقولهم المشهور "كلمة حق أريد بها باطل"[3].ومن هنا وباعتبار الثقافي يتبع دائما إما هذا أو ذاك فإن الذي انجر عن هذه الحادثة صنفين من الثقافة ما يمكن أن نطلق عليه بثقافة الغزالي أبا حامد وهي الثقافة التي نجد لها صدى في ذات ابن تيمية وابن القيم الجوزية. من جهة.

---

[1] - حديث شريف.

[2] - مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1981ص86

[3] - عباس محمد العقاد عبقرية الإمام دار المعارف القاهرة

ومن جهة أخرى، ما يمكن أن نطلق عليه بثقافة ابن رشد التي سوف تجد صدى لها مع ذات ابن خلدون.[1]

ويتوقف المد الثقافي كإشعاع تاريخي مع ما أطلقنا عيه بمحاكم التفتيش والذي يأتي تاريخيا مع سقوط غرناطة في العالم الإسلامي وبروز العصر الجديد أي عصر الاكتشافات الجغرافية مع سنة 1492: وعندما قلنا بتوقف المد الثقافي كإشعاع تاريخي فإنما عنينا بذلك الجانب المرئي من هذا المد قد توقف لأنه وكما هو معروف إن أي ثقافية لها من المقومات ما يحفظ وما يتخلى عنه تلقائيا بمرور الزمن وهو الذي قصدنا وكذلك كان شأن الثقافة الإسلامية فلقد توقف فيها المد الإشعاعي مع بداية التاريخ المعاصر في نقطة جغرافية أخرى. وإذا ما عدنا لمسألة محاكم التفتيش فهي بالدرجة الأولى تشبه تماما حادثة اتفاقية يالطا والتي تم - فيما بعد - على إثرها اقتسام الموروث العلمي[2] الألماني بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية مع شيء من الاختلاف. وأن محاكم التفتيش تم خلالها تجريد الأدمغة الإسلامية من صفة النبوغ وذلك بالاستعانة بالتجريد الإستأصلي أو اجتثاث ما هو ثقافي لدى النخبة من المثقفين المسلمين بالأندلس "والحق أن موت عالم كبير خسارة عظيمة دونها موت الألوف ممن عاشوا وماتوا إلا كأدوات متحركة إذا قاموا، أو خشب مسندة ونصب نخرة إذا قعدوا، وذلك راجع إلى أن تكوين عالم يحتاجه إلى مجهود كبير حتى يصل إلى درجة من العلم، دع عنك ما يجب أن يكون له من استعداد للنبوغ أو ميل إلى

---

[1] - نقول هذا من الناحية الفلسفية. لقد بات العالم الإسلامي يشده تيارين فلسفيين منذ تلك الحادثة: حادثة صفين. تيار: المغلبين النقل على العقل. وتيار مغلي العقل على النقل . وهو الطبع الذي طبع الفلسفة الإسلامية .

[2] - اقتسمت الأدمغة الألمانية بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية

التفكير والبحث."[1] ويذكر الدكتور علي مظهر صاحب محاكم التفتيش أن الكثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة من مختف الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية أبيدوا باستخدام هذه المحاكم التي كنت تدار من جهلة وقساوسة متعصبين حتى أن كتبهم أحرقت وتأليفهم رموا بها في البحر وأخرى أتلفت إتلافا وكان كل ماله صلة بالعلم صادر من هؤلاء العلماء والمفكرين أولا يرم صاحبه بالزندقة وبالإلحاد ومن ثمة يحرق ويدمر وحتى يذيقونه أشد العذاب قبل أن يلق حتفه. وهي محاكم وصل بها الحد إلى تغيير هوية الناس وهوية العلماء والمفكرين وانتزعت منهم الشخصية الأسبانية انتزاعا. وكان حال العلماء.

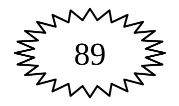
وأما عن تأثير الحادثة الثانية في تحديد العلاقات الثقافية لهذا العالم فهو كتاب "في الأدب الجاهلي"[2] وكتاب "مستقبل الثقافة في مصر" فبخصوص الكتاب الأول والذي أثيرت حوله ضجة[3] دهت بها مصر دهياء والعالم الإسلامي.

---

[1] - علي مظهر ، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتقال وفرنسا وغيرها ...مطبعة أنصار السنة المحمدية 1948 ص96

[2] - ظهر الكتاب للمرة الأولى ب في الشعر الجاهلي بعد ما أثيرت حوله قضايا من العدالة في مصر ثم ظهر في العام الموالي ب في الأدب الجاهلي

[3]- أنظر الدراسة التي قدمها سلطان سعد القحطاني على الموقع
http://www.al-jazirah.com.sa/culture/15092003/fadaat16.htm التي يقول فيها :" ومن أشهر الذين تصدوا لكتابه هذا، مصطفى صادق الرافعي «تحت راية القرآن»، ومحمد فريد وجدي «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» ومحمد احمد الغمراوي «النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي» ومحمد الخضر حسين «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» ومحمد لطفي جمعة» الشهاب الراصد» ومحمد احمد عرفة «نقض مطاعن في القرآن» ومحمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر» وربما يكون هذا الكتاب، هو الكتاب الوحيد الذي التزم المنهج العلمي، في نقد كتاب طه حسين.



فهو تشكيكه في وجود ذاك الأدب والذي عرف به خاصة أصحاب المعلقات[1]. ولم يكن العمل الذي قام به هنا طه حسين عمل لذاته مؤثر وإنما هو كذلك بما فتح الأبواب أمام المجتهدين من لا سيما المستشرقين[2] في الخوض في مسائل تعود بالأصل إلى اهتمام علماء الدين أكثر مما تعود إلى اهتمام الأنتروبولوجيين غير أن هؤلاء اعتبروها تعود لهذا الصنف من الباحثين. تعود إلى علماء الدين لا اعتبارات عدى لا يسعنا الحال للخوض فيها الآن. لكن الملاحظ أن هذا المؤلف والذي اعتمدته النهضة الثقافية الحديثة مرجعا بات من قبيل الكاتب التي يشع لكن هذه المرة يشع اطرادا تاريخيا. والمهم أنه بنى لبنة في الحياة الثقافية للأمة. ومنه فلقد كان بداية الانفتاح الثقافي على الأفكار في العالم المعاصر. وأما الكتاب الثاني والذي تضمن دعوة صريحة للانفتاح بل للتطبيع الحضاري، ومنه للإتباع الثقافي فهو كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" والذي حدد فيه المؤلف شروط النهضة، في إتباع حضارة المتوسط. في كل صغيرة وكبيرة، من استخدام الشوكة في الأكل، إلى استخدام التراث اليوناني باعتباره يشكل مرجعية ثقافية للحضارات، التي تداولت على المتوسط[3]. ولا يهمنا أيضا تفاصيل ما جاء به المؤلف. فلقد خاض فيها الخائضون بما يكفي. وما يهمنا هنا، هو أيضا تلك الدعوة للانفتاح الثقافي. وإذا أردنا على سبيل المقاربة مقارنة الوضع الثقافي لـ"تهافت الفلاسفة[2]4"

---

[1] - لتفاصيل أكثر راجع طه حسين في الأدب الجاهلي"

[2] - يجمع الباحثون والنقاد على أن التأثر واضح من أستاذه المستشرق مارجليوث margolioth . لكن هذا لا ينفي أن هناك من خاض في المسألة أكثر من المستشرقين ومن المستغربين

[3] أنظر طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر ،

[4] تهافت الفلاسفة : مؤلف أبا حامد الغزالي المعروف بحجة الإسلام. وتهافت التهافت مؤلف لأبي الوليد ابن رشد وهو قاضي القضاة.

أولـ" تهافت التهافت". لقلنا أن تلك الثقافة استطاعت أن تهضم ثقات الغير بما ينسجم ويتماشى وأفكار هذه المؤلفات الذي ذكرنا، لما هي عليه من متشبع بالمادة الثقافية. على غرار بدايات النهضة المعاصرة، والتي دشن لها كتاب -كما قلنا- مستقبل الثقافة في مصر، أو كتاب ... فهي لم تسطع أن تقوم بما قامت به مثيلاته في التاريخ الإسلامي لعدم وجود ذاك التشبع الثقافي. ومن هنا أمكن القول أن طه حسين لم يكن على ضلال، وإنما العصر الذي أنجبه هو الذي لم يقدم له وجهة العالم الإسلامي الصحيح. بمعنى أن المؤهلات الثقافية لم تكن بها مادة التشبع الثقافي للقوم، كنظيرتها مع عصر حجة الإسلام أبا حامد الغزالي،أو قاضي قضاة اشبيلية الوليد ابن رشد.

والخلاصة بخصوص ميلاد العلاقات الثقافية أنها تأثرت بالنزعات المعادية، لتطورها الطبيعي في العالم الإسلامي من جهة. ومن جهة أخرى، لم تتمكن من مسايرة العصر لأنها باختصار كانت فاقدة للموروث الثقافي والذي أطلقنا عليه ب"التشبع الثقافي."[1]

مراحل تطور العلاقات الثقافية:

بداية أود أن أحدد ما لمقصود من كلمة العلاقات الثقافية حتى ننظرفي تطورها باختصار نقول عن علاقة ما أنها كذالك بما يربط بينها وبين غيرها من الثقافة من رابط قد يكون هذا الرابط رابط الزيادة أو الإضافة، أو رابط الامتناع أو رابط التعارض بين ثقافة وثقافة أخرى. ومن هنا قد يلزم أيضا روابط أخرى محددة لثقافة أخرى، كأن تكون هذه الثقافة مربوطة إلى الشرطية أو كأن تكون

[1] التشبع الثقافي نعني به سيولة المادة الثقافية التي تساهم في تثقيف الفرد من المهد إلى اللحد.وبالتالي تهيئة الظروف الاجتماعية أكثر.

علاقات ثقافية متبادلة. بعد تحديدنا للعلاقات التي يمكنها أن تنشأ بين ثقافة وأخرى. لننظر الآن في الوضعية القافية لعالمنا اليوم أي العالم العربي الإسلامي

إن الجو إلي يحدد شروط التحضر للفرد في عالمنا الإسلامي تكاد تكون منعدمة ومنه أمكن القول أن نصطلح على ما يمكننا أن نسميه بأننا نعيش جو "اللاّثقافة " و**ن** هنا فالعلاقة التي نرغب في تحليلها، هي علاقة تربط بين وضع اللاثقافة لمجتمعاتنا، مع أوضاع ثقافية عالمية نسايرها اليوم بحكم الزمن والعصر. فيا ترى لماذا نحن نعايش الوضع الأول أي الوضع أللثقافي؟ هذا السؤل في الحقيقة يجرنا إلى تحليل مكونات هذا الوضع ومن ثمة إثبات الحكم عليه أو نفي هذا الحكم عليه.

إن الجو الذي يحدد شروط التحضر للفرد من ميلاده إلى وفاته يكاد يكون منعدم للأسباب التالية:

- لا يوجد هناك اهتمام بالفرد في مجتمعاتنا من هذه الناحية الثقافية. كما أنه لا يوجد هناك اهتمام بالمجتمع من الأفراد. وعموما أن الفرد يقدم إشعاعا ثقافيا للمجموع والعكس صحيح أي أن المجموع يقدم الحضن الدافئ من الناحية الثقافية للفرد ولعل أحسن دليل في هذا المقام الغياب التام لما ما يتلقاه الفرد في المدرسة وما يمارسه من سلوكات خارج المدرسة أو لنقل أيضا غياب منعدم لما يخشع به الفرد في المسجد وما يمارسه من سلوكات خارج عتبة المسجد.

- انعدام الحرية كشرط في أي ممارسة ثقافية فالتفاعل الاجتماعيلا يحصل في المجال الاجتماعي بسبب أن ما يقدمه الفرد لغيره لا تتوفر به الحرية فاليوم في هذا العالم الذي نعايشه لا نتوفر على تلك القاعدة الذهبية ..."وأمر بالمعروف وانه عن المنكر"[1] ...هذا ليس من الناحية الأخلاقية وحسب

---

[1] - سورة لقمان الآية17

بل ومن الناحية حتى القانونية وحتى من الناحية الإدارية. ناهيك عن أن تلك القاعدة هي الأخرى مهدورة في مجال العلاقات الدولية، فلا نكاد نعثر على أمة من الأمم تبين لأمة أخرى مزالقها وإذا حصل وأن بادرت دولة في انتقاد دولة: ولتكن هذه الدولة جارتها فإن الرد كما هو معروف يصبح من وجهة قانونية تدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى.

- حتى لا حظنا بأم أعيننا الحرية التي ينعم بها عالم الغرب، في عدة لقطات منها تظاهر الغربيين لاحتلال العراق من الأمريكان،- في الوقت الذي لم يقدم ولا بلد عربي أو إسلامي تظاهر على أيام محنة الشعب العراقي والتي لا زالت مستمرة بمعنى أن الوضع المتدهور من ناحية انعدام الحرية لا يزال مستمرا- وعليه فالمجتمع لا يزال يعيش ما سميناه بحالة اللاثقافة.

- غياب السياسة في سياسات عديدة مما تسبب في خلق جو مشحون ومكهرب بين الشعوب بل وصل في كثير من الحالات إلى بين الدول ومنه فلعل أحسن دليل في هذا المجال مقاطعة بعض الدول لاجتماعات الجامعة العربية. وهذا الجو الذي برز إلى السطح هو جو النزعات العرقية و"النزعات المادية في الإسلام" والنزعات .... ولنق عنه أي شيء سوى أنه جو يحتضن الثقافة سوى أن يكون جوا معاديا لكل ما هو ثقافي.

- احتضان "طرق تنسل إلى حظيرة التصوف وأخرى تنحدر إلى عالم العجائب الذي هبت منه روح ألف ليلة وليلة وطريقة ثالثة تدعي الرقص والغناء بدعوى أنها تحضرت"[1].

ذلك أن الصنف الأول وإن شكّل في التاريخ خميرة المجتمع فلقد ركن بالمجتمع على ما هو عليه من بعد أيام الموحدين إلى أيامنا هذه. فلقد أورد

[1]مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق- بيروت، ص91

الدكتور أبو القاسم سعد الـلـه تبيانا لهذه الأصناف من الطرق بل لهذه الأصناف من الطرائق ما يفي بحاجة القارئ العربي في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي".

وأما الصنف الثاني فلقد نشتم رائحته دائما في بدايات التأليف - للأطفال خاصة- بالقول كان في قديم الزمان..... وهذا الصنف من التأليف طغىعلى الحياة الاجتماعية في عالمنا الإسلامي.

وأما الصنف الثالث فلقد قدم العديد من الأمثلة، وهي تُرى على أغلب القنوات الفضائية العربية متمسكة "بتحضرها" ! اعتقادا منها أن الرقص والغناء هو الحضارة. متناسية أن هذا الأخير هو شكل من الأشكال التي نعبر بها عن حالة حرمان حاول فرويد.S. Freud أن يجد لها علاجا في التحليل النفسي فقط. أعني أنها تلك الحالة المرضية التي تصيب الأفراد والمجتمعات على أيام تفسخها.

وإذا كنا كذلك فإن القاطرة: قاطرة التحضر لم تنطلق بعد في مجتمعنا المعاصر على الأقل. فكيف يكون عليه الشكل وهو غير موجود وإن وجد فهو وجود شاذ.والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه .ومن هنا فإن الحالة هذه لا يمكنها أن تكون حالة نعبر من خلالها على شيء اسمه الحضارة بل ثقافة القوم.

لنعود الآن إلى تحليل للنموذج الثاني في معادلتنا العلاقات الثقافية وهو النموذج الغربي. في الحقيقة لغة الأرقام يتبين من خلالها أن هذه الثقافة تنتج باستمرار أسباب بقائها. فلقد بينت الدراسات في المجال الثقافي أن الفرد الأوروبي يتلقى معدلا عاليا جدا من المعلوماتية. على كافة الأصعدة وهو الشيء الذي يحدد نوع المقروئية لديه . ففي مجال عمليات التعلم يلاحظ أن نسب المتعلمين جدا عالية مقارنة بالمتعلمين في باقي الدول التي ترزخ تحت وطأة التخلف. كما أن نسبة التعلم ليست وحدها هي المحددة للشكل الثقافي الذي تعايشه القارة الأوروبية على غرار مثيلاتها في البلاد النامية . ومن هنا لا نغالي إذا قلنا أن ما يطلق

عليه بمجموع العادات والتقاليد أصبح في الغرب الأوربي اليوم حبيس التطور، والتطور بكل معانيه. مما يعرف عنده بالتطور التكنولوجي والتطور المعلوماتي، وحتى التطور العلمي الحضاري.

وعندما نقيم مقارنة بين عمل الفرد اليومي في القارة الأوروبية، وبينه وبين عمل نظيره في القارة الإفريقية. نجد أن هذا الأول يستفيد من وقته يوميا بنسب متفاوتة، لكنها نسب محققة لما يحققه المجموع عندها. بينما لا يكاد يصل إلى الحد الأدنى المطلوب في البلاد العربية أو البلاد الإسلامية ولا حتى الإفريقية.

على غرار هذا فإن الدراسات تؤكد أن نسبة عقد ملتقيات متخصصة في: مثلا الجامعات الأوروبية نسبة مقبولة جدا. بينما لا تكاد تذكر في بعض البلاد. هذا يدل دلالة قاطعة أن درجة النمو الثقافي باتت تعيش على وتيرة سباتيةفي البلاد العربية الإسلامية بينما باتت تعيش على وتيرة متسارعة في بلاد الغرب. هذا من ناحية الكم. وكذا الحال من ناحية الكيف. فإذا ما أجرينا مقارنة بين ما يقدم من ملتقيات ونوع الملتقيات فإننا نجد أن الأعمال العلمية في الغرب غالبا ما يعرض فيها اختراع أو إبداع، وأقل شيء إضافة للأفكار. غير أنه في ملتقيات البلاد السائرة في طريق النمو فإننا نجد أن التقييم الكيفي النوعي للأعمال العلمية غائب تماما. وفي أحسن الأحوال تقييم على أنها أعمال لكن لا يهم إذا لا يكون فيها إبداع ولا يهم إذا لم يكن فيها ابتكار والمهم في هذه الحالة الكتابة، ومن ثمة الكتابة واجترار الأفكار الماضية. والتي غالبا ما تكون تراثية. وهذا الوضع يذكرنا بعصر الانحطاط للحضارة الإسلامية، حيث بقيت مقدمة ابن خلدون حروفا ميتة مع رجل ما بعد الموحدين.وكتعليق على الوضعية نقول أن العصر عصر ما بعد الموجدين لا زال بيننا بكل ما يحمل من أفكار وصور.

وفي نموذج آخر يجسد علاقاتنا الثقافية بالغرب سوف نتناول النموذج الذي كان ولازال في المقدمة. يقول أحد الباحثين: "ومن الندوات والمؤتمرات التي لا تبني جسورا بين العالم العربي والغرب بل هي في الواقع حواجز وعقبات ما كان يقوم به المعهد الملكي البريطاني للشؤون الدولية بالتعاون مع هيئة الإذاعة البريطانية من عقد ندوات بعنوان الحوار بين العالم العربي وأوربا في كل من القاهرة والبحرين. وعند استعراض الأسماء المشاركة في هذه الندوات كانت من أصحاب الاتجاه العلماني أو المتغرب. والعجيب أن هذه الندوات تقام في بلادنا وتستضيف العلماء البريطانيين والأوربيين ليسمعوا صدى أفكارهم وأرائهم فكأنهم لا يطيقون أن يسمعوا صوتا مخالفا.ومن المؤتمرات العلمية الغربية التي لا تبني الجسور المؤتمر العالمي الأول حول الإسلام والقرن الواحد والعشرين الذي عقد في مدينة ليدن عام 1996.فمن الملاحظات هو علية الطابع العلماني في طرح بعض القضايا الإسلامية مثل قضايا الحركات الإسلامية ، وموضوع المرأة حيث تزعمت الحديث عن المرأة المسلمة الباحثة الباكستانية التي تفخر بمؤتمر السكان الذي عقد في القاهرة على مقربة من الأزهر ليسمع صوت المرأة في قضاياها وكذلك غاب عن المؤتمر ممثلين للحركات الإسلامية المعتدلة في العالم الإسلامي وبخاصة من مصر التي انفرد ممثلو مؤسسة الأهرام أو التيار العلماني الليبيرالي بالحديث عن هذا الموضوع.

وتأكيدا لهذا التوجه فقد تم اختيار هذه الباحثة الباكستانية التي تعمل في جامعة لويفيل الأمريكية بولاية كنتكي لتلقي المحاضرة الافتتاحية وكانت بعنوان "ماذا يعني أن أكون مسلما عشية القرن الواحد والعشرين؟"...."[1]

هذا نموذح. وأما النموذح الآخر فإن العلاقات الثقافية اليوم تتميز بالإقليمية ومن هنا يمكننا تمييز حوالي ثلاث أقاليم ثقافية:

- **الكتلة الأمريكو- أوروبية.**
- **الكتلة الأفرقية- الأسيوية.**
- **الكتلة الهندو- صينية .**

وجغرافيا يمكن تحديد العلاقات الثقافية موحدة بين العالم الذي يسمى سياسيا بدول الشمال. والعالم الذي يطلق عليه بدول الجنوب. والعالم الهندو صيني.

فبخصوص العالم الذي يشمل دول الشمال نجد أن العلاقات الثقافية متميزة بين شعوب هذه البلدان. حتى أنه ترسم بطولاتها مع أفلام الغرب الأمريكي في واقع الناس. ولعل أحسن مثلا في هذا المجال هو ذاك التكتل والتحالف السياسي الذي ربط بين معظم دول الشمال، في مسألة التدخل في العراق. أو في المسالة الأفغانية. فلقد لاحظنا كيف أن السياسة الأمريكية اعتبرت مشكلة ما يسمى عندها بـ"الإرهاب" مشكلة تهم دول الشمال أكثر من غيرها حتى بات "جورج بوش" يقوم بجولات ماراطونية قبل السيطرة على العراق . والشيء نفسه يقوم به قبل المشكلة الأفغانية للعواصم الشمالية. وهو الشيء الذي لم تقم به السياسة

[1] - مازن صلاح مطبقاني، منهجية التعاون العلمي بين الجامعات الغربية والجامعات العربية "الواقع والمثال" . المؤتمر الدولي الثالث" نحو إسهام عربي إنساني في الحضارة العربية الإسلامية ": منتدى الوسطية للفكر والثقافة . الأردن- عمان- 8-10أيلول 2007 .

الأمريكية مع المحنة الفلسطينية ! (وهي المشكلة التي عمرت واستعصت طويلا عن الحل) الشيء الذي يدل دلالة قاطعة أن ما يهم الشمال لا يهم الجنوب. والعكس صحيح. على الأقل في السياسة الأمريكية.ومن هنا يمكننا القول أن العلاقات الثقافية شمال-جنوب. بها تعارض منطقي ومبرر.

والعلاقات الثقافية في دول الشمال لا زالت مستمدة من: "دع ما لقيصر لقيصر وما لـلـه لـلـه"[1] لكنها تصبح ذات فاعلية عندما يتعلق الأمر بتكثيف الجهود لمحاربة ما عرف لديها بالإرهاب. لماذا؟ لأن العنصر المحفز لهذه الفاعلية توفره أيادي خفية (تقوم جمعيات في الغرب اليوم للترويج والإشاعة والدعاية لما يعرف بالإسلاموفوبيا أي الإسلام المرعب أو المخيف هذه الجمعيات هي في الغالب من تنظيمات يهودية وهو الشيء الذي لم تقم به جمعيات وتنظيمات العالم الإسلامي في الرقعة الجغرافية الأوربية من أجل تقديم الوجه الحقيقي للإسلام السمح. وللديانة التي قامت وتقوم على أساس مبدأ السلم. حتى أن المسلم يسلم على غيره بتحية: السلام. والسلام مع المسلمين ومع غيرهم. وهي قاعدة ذهبية في اعتقادي لا توجد قاعدة ذهبية مثلها في جميع لغات وديانات العالم.. ومن هنا فالظاهر أن هناك تقصير من العمل الدعوي في مجال التعريف بالإسلام، تعريف الغير بهذه الديانة السمحة. والحقيقة أن الكلمة لمن روح القدس. وكلما كانت الكلمة كلما كانت هناك ترجمات لها في حياة البشر. لكن في حالة ما إذا لم يكن للكلمة معنى: معنى هذا أن الساحة سوف تبقى متروكة " للفعل ولرد الفعل" وهو قانون فيزيائي.ومن الأمثلة على هذا قيام مجلات وجرائد بالتطاول على شخص الرسول محمد بالرسومات المسيئة وهو استفزاز لكافة المسلمين. وهو فعل وقابلها رد فعل. تمثل في ذاك

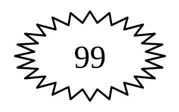
[1] - مقولة " دع ما لقيصر لقيصر وما لـلـه لـلـه" بنت الأنا الاجتماعي الذي تشكلت منه الذات الأوروبية الحديثة .

الهيجان الموسمي ! الذي راح ضحيته الضحايا والضحايا، لأنهم في حقيقة الأمر لم يتمكنوا بل لم يستطيعوا أن يقاطعوا الكوكا كولا والبيبسي. و...المنتوجات الغربية. ربما لأنهم« قوم يخافون من أنفسهم » ولأن الإناء لا يرشح إلا بما فيه والقوم فاقدون للمنتوجات ويعيشون مما ينتج الآخر. ولم تتعض الأمة بقول الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي لما قال ويل لأمة لا تأكل مما تزرع ولا تلبس مما تنسج ولا .....

وهكذا فإن الحياة هي الأخرى تخشى الفراغ. ومن هنا ففي المجال الثقافي، يجدر بنا أن ننوه إلى أن العمل في هذا الصدد جد مقصرين فيه. ومن هنا فلا غرو إن رأينا رسوما مسيئة للرسول الكريم، تارة من جريدة وتارة من مجلة، وأخرى من موقع انترنيت . لأن المشكلة لم نعالجها بالطريقة التي أمرنا بإتباعها. ويبقى دائما "البريكولاج" في معالجة هذا النوع من القضايا التي تطرح والتي من المفروض أن نكون قد وجدنا لها الحل في طابعها الثقافي. حتى لا تأخذ الطابع السياسي، وتصبح تتكر في شكل الطابع العنفواني والعسكري و....

إننا حين نتأمل الخريطة الثقافية للعالم العربي الإسلامي نجدها باهتة على غرار خريطة ما أطلقنا عليه بدول الشمال. ومن هنا فلا بد من تكثيف الجهود في هذا الباب داخليا وخارجيا. أتساءل عن الدور الذي تقوم به الملاحق الثقافية لكل عالمنا المعاصر. والحقيقة أن تفريط ما مصابة به الأمة في هذا الجانب، لأن هذا الجانب هو الذي يأخذ على كاهله الجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية.

ومن هنا لا بد من الأخذ بعين الحسبان العمل الكمي والكيفي الذي تقوم به ملحقاتنا الثقافية. لا أعتقد أن العمل الثقافي في هذا الباب يجد من يقف في وجهه. بشرط أن يكون ثقافيا. ومن هنا فإن عنصر التنظيم في هذا الباب ضروري. ولا يمكن بأي حال من الأحوال، ان نعرف غيرنا بالثقافة التي نتربع



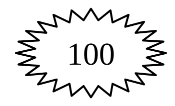
عليها إلا إذا كنا نحن في مستوى الحدث. بمعنى أن نكون حريصين دائما على تقديم الوجه اللائق من ثقافتنا، ذاك الوجه الذي به تمكن الرجل الغربيمن تقديم نموذجه. أعني أن نرتفع إلى مستوى أنى تكون الثقافة تعني في وجه من وجوهها سوى تعلم الحضارة، من جميع الجوانب. والأوجه التي من خلالها نتقدم بهذا النموذج هي:

الوجه الجمالي فينا هذا الوجه الذي به تتحرك المشاعر فلا يمكننا بأي حال من الأحوال أن تتقبل فكرتنا إلا في طابعها الجمالي. اعتبارا من أن الـلـه جميل يحب الجمال. وكن جميلا ترى الوجود جميلا. والجمال هنا هو وجه المجتمع لذا لا بد أن نرعاه في كل صغيرة وفي كل كبيرة. فلا يمكنني أن أغفل عن ذاتي وفي الآن نفسه، لا يمكنني أن أغفل عن المحيط الذي يحيط بهذه الذاتمن الناحية الجمالية. ومن هنا فإنني بهذا وحده تتقبل فكرتي عند الآخر.

وأما الوجه الآخر فهو أن أتميز بالفعالية في أي عمل أقوم به لأن الذي لا يعمل لا مكانة له بين العالم ولا مكان له في عالم لا الكبار ولا عالم الصغار. فالذي لا يقدم المنطق العملي في حياته، لن يكون قدوة ناهيك عن أن يكون المثال. ومسألة العمل عندنا لها مفهوم ربما خاص نوعا ما. لأن العمل المطالبون به هو ذاك الذي نسأل عنه. مهما كان صغيرا وكبيرا. ومن هنا بات لزاما علينا أن نتحرك فيتحرك بنا غيرنا. وقديما قيل "في الحركة" بركة ولا زالت هذه الحكمة تطبع حياة الشعوب وحياة الأمم فلا مكانة لأمة لا تتحرك من منطق عملي.

وأما الوجه الثالث في ثقافتنا فهو الطابع الأخلاقي لقد قال شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.



وليس من هذا المنطلق ولكن لأن الحكمة هي التي تجعل هذا الاهتمام بهذه المسألة فلا يمكننا أن نتصور أي مجتمع على مدار التاريخ تطور ولا أخلاق له. فالأخلاق هي التي تجعل من الروابط الاجتماعية روابط قوية، أو روابط هشة. لأننا نعلم أن العلاقات الاجتماعية، من خلالها يكون المجتمع في أوج قوته، ومنها يكون المجتمع في أوج تفسخه. والحالة الأولى فقط هي التي ترشحه للتطور والتقدم. أما الحالة الثانية. فهي التي تجعل دوما أمور شبكة علاقاته منحلة. وبالتالي لن يقدر هذا المجتمع أو ذاك على هذه الشاكلة من التطور. وهو المثال الذي مع الأسف نحن عليه اليوم. والمثال الأول. هو ذاك الذي تحقق في تاريخنا. من خلال نماذج شتى.وبأخذ عينة من التاريخ وعينة من الحاضر نصل إلى: مثلا أن النموذج المقتدى به تمثلا في تلك المرأة الزانية التي طلبت من الرسول صلى اللـه عليه وسلم أن يقيم عليها الحد. وهي وقفة تتطلب التفكير والتأمل إذا لم نقل الذهول مع وقفة أخرى من واقعنا تصبح حادثة المال العام في حالة سرقة جهارا نهارا ولا من محرك لساكن وإن حرك هذا الساكن فليس إلا من قبيل الشكلية وذر الرماد في العيون.

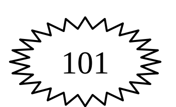
نماذج التلوين الثقافي:

وددت أن أقدم في ختام بحثي هذا نماذج من التلوين الثقافي لثقافة المجتمع – طبعا وليس لثقافة الدولة – حتى يتبين لنا بما لا يدع مجالا للشك أن المناخ الثقافي الذي عايشه مجتمعنا المعاصر نشأ في ضل هذا النوعمن التفكير. ولسوف أترك القارئ يحكم عليه.

هذا النوذج الأول هو صاحب الترجمة الفرنسية للقرآن وهو جاك بيرك[1].

---

[1] - جاك بيرك فرنسي من مواليد فرندا ولاية تيارت بالجزائر اهتم بالتاريخ السوسيولوجي للعرب وللعالم ان اليوم والأمس. والإسلام في الزمن المعاصر....الخ



يرى جاك بيرك أن ثقافاتنا (يقصد الثقافة الغربية) اليوم لم تمت وحسب مع نهايات القرن العشرين، بل تأكد ذلك واضحا للعيان. ولكنه يعود فيريفي الحقيقة أن ميلادها لا ينتهي.[1] إن هذا القول من بيرك يفيد أن الثقافة تتجدد وهذه الأخيرة تنطوي على عدة معاني. أولاها أن التجدد يمكنه أن يكون لشيء وجد بالأصل ثم أتت عليه ظروف تاريخية فأتلفت متغيراته العرضية في حين أن ثوابته أي جوهره لا يأتي عيه التلف ومنه فإنه يعود للحياة ثانية.وثانيها أن المتغيرات الثقافة يمكنها أن تتجدد على الأقل شكليا إذا كان الجوهر (أي الثوابت قد صارت رميما بفعل الانتقام[2] الذي تمارسه الأفكار في تاريخ ثقافة ما.

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث أخيرا للمجتمع السوفياتي من فقدانه للمبررات الثقافية[3] ، تجلى ذلك في الخروج المفاجئ لصاحب الغلاسنوست بإعلانه الشفافية والإصلاحات للمجتمع الذي أسلفنا هذا سياسيا. كما عبر عن الصيغة ثقافيا بل علميا فرار العالم زاخاروف نحو الغرب والأمثلة كثيرة في هذا المضمار وإنما تعبر عن أن هذه الكتلة الثقافية قد فقدت مبررات وجودها منذ 1989 وهو تاريخ سقوط جدار بارلين.

والمهم هو أن بيرك يكون قد انتبه إلى هذا الخطر الذي أصبح يداهم الثقافة الأوروبية. وعندما نقف قليلا عند قوله السالف نجد أن الثقافة التي يمكنها أن تتجدد إنما بسبب أن منعرجات التاريخ المعاصر هي التي رمت

---

[1] - Jacques Berque, L'Islam au temps moderne, sindbad, Paris, 1984, P.102

[2] - لمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة راجع : Malek Ben nabi Le problème des idées dans le monde musulman

[3] - لمزيد وللتوسع حول الفكرة راجع: مالك بن نبي دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر دمشق، 1983

بها إلى الموات فهو يتحدث عن اقتناع من أن الثقافة الغربية أصبحت تعاني فقدانها لمبررات وجودها (طبعا بسبب ويلات الحربين العالميتين وبسبب ويلات ديان بيان فو وبسبب دحر الثورة الجزائرية لاعتداء الجانب القيمي على الثوار الجزائريين في الجبال (وحين ينتبه رجل كبيرك لمسألة فقدان المبررات الثقافية للذات الأوروبية إنما يكون ذلك وليد فطانة رجل غربي ومستشرق! وهو الشيء الذي انتبهت له الكاتبة اليسارية حنة أرندت Henna Arendt حين قالت وهي تتكلم عن التحول الثقافي من الفردانية إلى المجتمعية"... ومن الأسبابالتي كثيرا ما حملت هؤلاء الأفراد على الانضمام إلى أحزاب ثورية أنهم وجدوا في أولئك الذين لم يقبلهم المجتمع بعض الخصال الإنسانية التي انقرضت في المجتمع" [1]

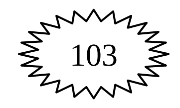
وفي رأي جاك بيرك فإن الثقافة تبحث عن تعريف أكثر تعزيزا لها بحيث يفتح لها أسسا جديدة. واكتشافات جديدة[2].ثم يتساءل عما إذا كان بالإمكان اقتراح تعريف لها يكون بالحيوية وبالحركية التي هي عليها. وهل بالإمكان اقتراح تعريف للثقافة يكون مثلها حيوي وحركي؟ وهو يعني في ما يعنيه أن التعريف الذي يجب أن يحدد الثقافة عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص المكونة لها بحيث تكون هذه الخصائص من الناحية التعريفية تلم بـأحد الأمرين:

الأول وهو أن يكون تعريف الثقافة تعريفا آخذا في الحسبان البناءات اللاتي يتربع عليها العصر. بمعنى أن عوامل المتغيرات – ولأنها عصرية- يجب أن تكون ثوابت فيها: الشيء الذي نستنتج منه أن بيرك يغلب في هذا الجانب عامل العصرنة على العوامل الأخرى. ولتكن مثلا عادات وتقاليد أمة ما نسميها

---

[1] - حنة أرندت، بين الماضي والمستقبل، ص216

[2] - Jacques Berque, L'Islam au temps moderne. P102



س: إن هذه العادات وهذه التقاليد لا يمكنها أن تساهم في عملية البناء الثقافي إلا أن تصبح من عادات ومن تقاليد العصر انطلاقا من أن "لكل عصر ثقافته" وهو يساهم في تكريس فكرة ثقافة الهيمنة أو العولمة التي ساهمت في صهر بعض الثقافات لضرب الوحدة الثقافية وما يمثلها[1] يقول حسن حنفي: "وانتشرت البحوث عن الأقليات العرقية والطائفية من أجل إبراز الخصوصيات والهويات والتعدديات الثقافية للقضاء على وحدة الثقافة ووحدة الوطن ووحدة التاريخ ووحدة المصير المشترك"[2].

الأمر الثاني أن تكون الثقافة بها من الحركية ما يمكنها أن تشكل خاصية من خصائص ثقافة أي أمة. ومن هنا فإن الثقافة هذه هي تلك التي تأخذفي الحسبان عامل "الأرض المحروقة". وعليه فلا يمكن أن نتصور ثقافة يطلق عليها بثقافة التبعية، أو ما يمكن أن يطلق عليها بثقافة الخنوع والخضوع. وكل ما في الأمر أن شكل الثقافة الإهليلجي هو النموذج المنتقى للثقافة التي ينادي بها بيرك. وعليه فمع منعرجات التاريخ تسكن ثقافة ما، ومع منعرجات العصر تسكن ثقافة أخرى أيضا.والنتيجة التي يمكننا أن نخلص إليها هنا أن بيرك يؤسس لثقافة العصرنة على اللاّثقافة.

---

[1] - لتفاصيل أكثر أنظر محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت عدد228فبراير1998

[2] - حسن حنفي ،صادق جلال العظم، ما العولمة؟الطبعة الأولى دار الفكر دمشق 1999 ص47

الخلاصة:

من هذه الدراسة نرى أن العلاقات الثقافية تتأرجح اليوم في العالم الإسلامي بين النشوء والتطور. ذلك بسبب أنها: تارة هي ثقافة المجتمع الذي أنتج وساهم في إنتاج هذا المحصول الثقافي الذي يعايشه. وتارة أخرى هي ثقافة الدولة. وهذه الازدواجية أصبحت من شيم الدولة اليوم في العالم العربي الإسلامي. ذلك أننا نعيش في هذا العالم المزدوج فهو يعيش الثقافة بكل ما يحمل هذا المدلول من معنى وهو يعيش اللاثقافة بكل ما يحمله هذا المدلول من معنى. والسبب هو الازدواجية التي مني بها العالم الإسلامي في ثقافته. وما الازدواجية اللغوية إلا الوجه المرئي منها. لأن هناك ازدواجية نفسية وازدواجية اجتماعية وازدواجية....

إن ثقافة الدولة لا تعتمد دائما على مبررات وجودها من الأفراد، أي أفرادها. بسبب أن هؤلاء مصابون "بنكوص نفسي" أو "انطفاء" ثقافي. أو بسبب أن ثقافة الدولة لا تجد في الأشكال الثقافية الأجنبية إلا النموذج المقتدى به لسبب معامل التعويض الذي تكلم عليه أدلرAdler.

لا زالت العلاقات الثقافية تخضع وكما خضعت دائما للعلاقات الاجتماعية فمدى متانة أو هشاشة هذه العلاقات هو الذي يتحكم بزمام عامل التوجيه الثقافي ونحن مسؤولون في هذا الجانب عن لماذا علاقاتنا الاجتماعية لا تزال هشة (وهو الموضوع الذي بإمكاننا الإجابة عليه في مناسبة أخرى.

إن السلطة الثقافية وحدها هي التي تؤهل السلطة السياسية لإقامة علاقات مع الأمم في شتى الميادين باعتبار أن هذا الكل يخضع لطبيعة المادة الثقافية التي يحيا بها مجتمع ما أو يموت.

فهرس المصادر والمراجع

أولا القرآن الكريم.

سورة البقرة آية 119.

سورة آل عمران آية 74.

سورة لقمان الآية17

ثانيا المصادر:

1- Algirdas Julien Greimas Rencontres ,In, Rivages et déserts, Sindbad Paris18,1988

2-Francis, Nicola. Tamesna Imprimerie nationale, Paris

3-Jacques Berque, L'inquiétude arabe des temps modernes. Extrait de la revue des études islamique,1958, librairie orientaliste Paule gauthner. Paris 1958.P106)

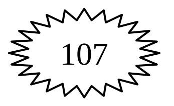
4-Jacques Berque, L'Islam au temps du monde, Sindbad, Paris, 1984,

5-6 Jacques Berque, L'Islam au temps moderne, Sindbad, Paris Rivages et déserts, Hommage à Jacques Berque, édition Sinddbad.

7- M. Jardon, Ouargla, t, J. Delheure,Fort- national (Algérie),

8- Malek Ben Nabi Le problème des idées dans le monde musulman

9- أبو القاسم سعد اللـه، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، الجزء 4 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998



10-حسن حنفي ،صادق جلال العظم، ما العولمة؟ الطبعة الأولى دار الفكر دمشق.

11- حنه أرندت، بين الماضي والمستقبل ، ترجمة عبد الرحمن بشناق، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1974

12- جاك بيرك، العرب من الأمس إلى الغد، ترجمة علي سعد، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.

13-خديجة بقطا، الحركة التبشيرية في الجزائر في القرن 19. منشورات دحلب 2009.

14- فرحات عباس، ليل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة،المحمدية، المغرب.

15-عباس محمد العقاد عبقرية الإمام دار المعارف القاهرة.

16-علي مظهر، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتقال وفرنسا وغيرها ...مطبعة أنصار السنة المحمدية 1948.

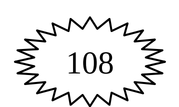
17- طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر،

18- مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي ،ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1981

19-مالك بن نبي مشكلة الثقافة، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق،الطبعة الثانية1979

20-مالك بن نبي ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1980.

21- مالك بن نبي دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، دار الفكر دمشق، 1983



22- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق- بيروت.

23-ماكييفر، ر. م. الجماعة دراسة في علم الاجتماع ، ترجمة محمد عي أبو ريدة ولويس اسكندر، دار الفكر العربي،1868.

الدوريات والمؤتمرات والمواقع والموسوعات.

24- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت عدد228فبراير.1998

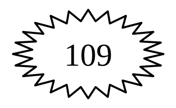
25- مازن صلاح مطبقاني، منهجية التعاون العلمي بين الجامعات الغربية والجامعات العربية "الواقع والمثال". المؤتمر الدولي الثالث" نحو إسهام عربي إنساني في الحضارة العربية الإسلامية": منتدى الوسطية للفكر والثقافة. الأردن- عمان- 8-10 أيلول 2007

26-الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن،تحقيق نديم مرعشلي دار الكتاب العربي ،1972

27-سلطان سعد القحطاني على الموقع

http://www.al-jazirah.com.sa/culture/15092003/fadaat16.htm

28-موسوعة، Encarta,Microsoft2004 كلمة Touareg.



29- لويس ماسينيون مستشرق فرنسي 1883-1962 ظل على رأي ميشال دوفوكوا بخصوص الثورة الجزائرية وقضية نفي سلطان المغرب محمد الخامس لتفاصيل أكثر أنظر:Microssoft,Encarta2004.

30Islamique,1958 ,librairie orientaliste Paule Jacques Berque, L'inquiétude arabe des temps modernes. Extrait de la revue des études- Gauthier. Paris 1958.

فهرس الموضوعات

